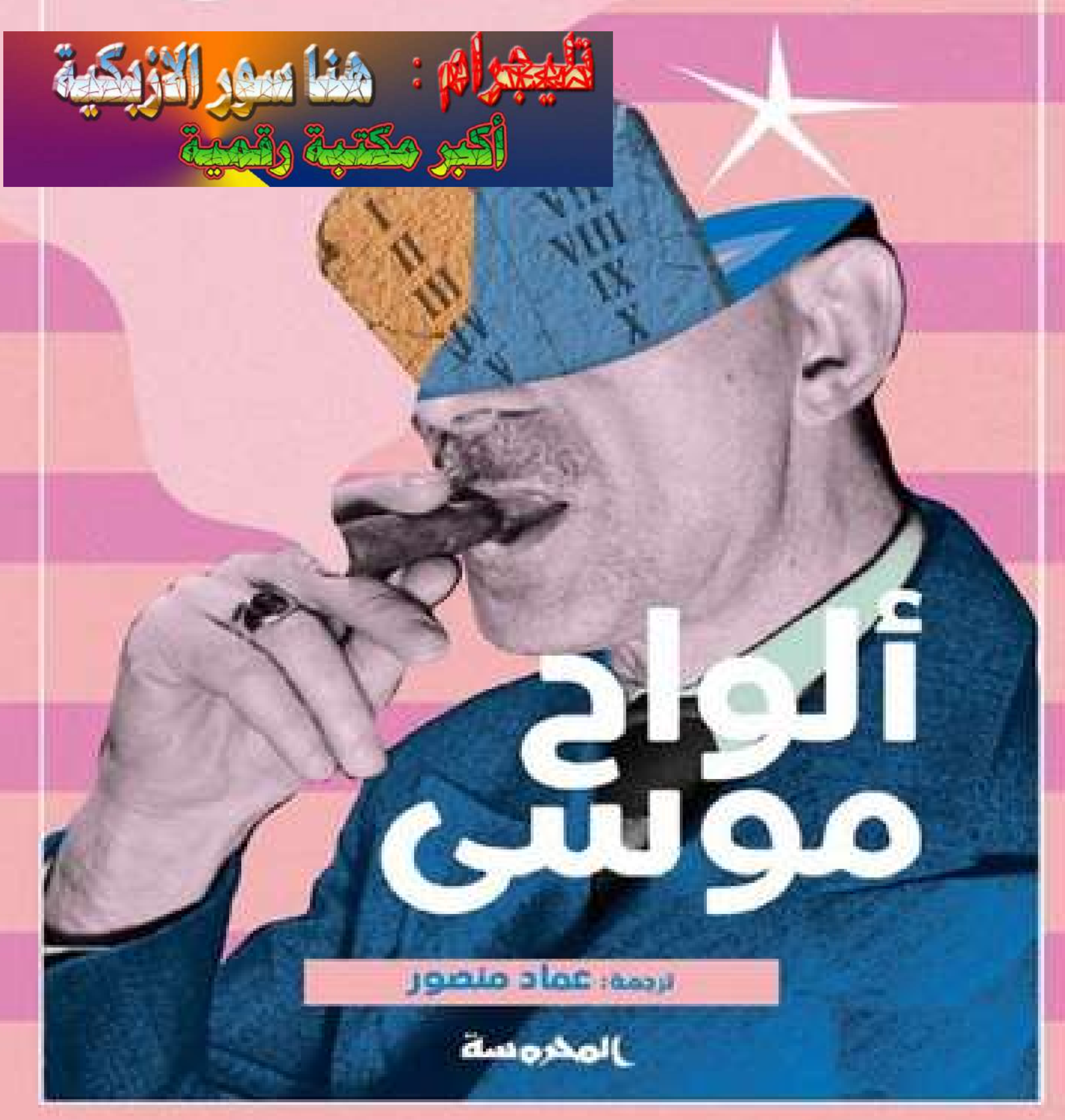
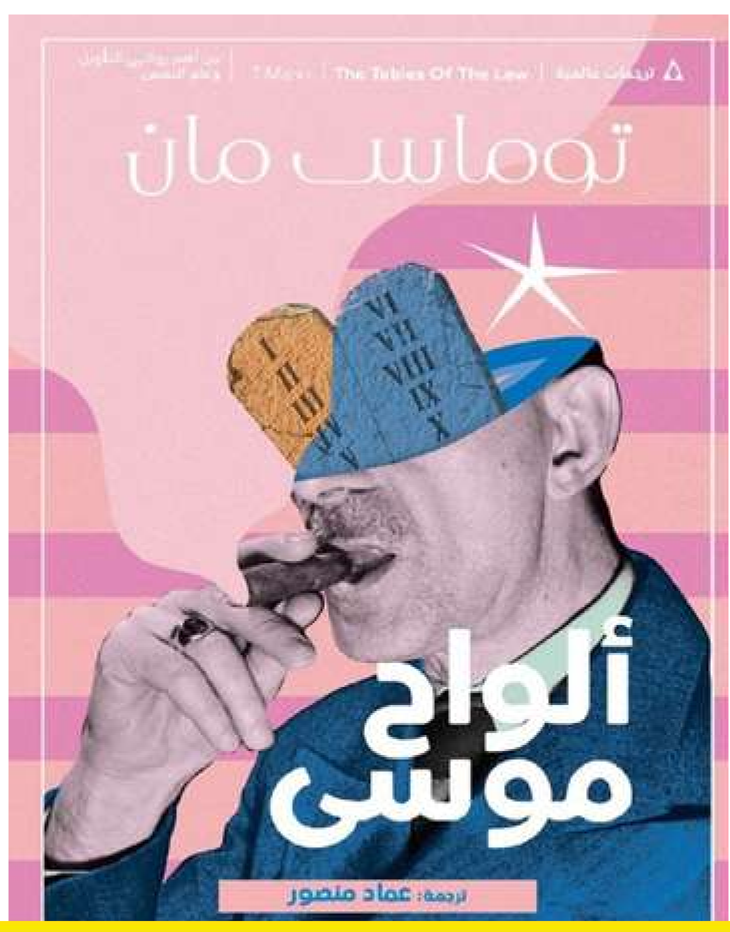
ترجمات عالمية | The Tables Of The Law

توماس مان



الفصل 1


The Tables Of The Law
توماس مان
ألواح موسى
ترجمة: عماد منصور


تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

الفصل 2

ألواح موسى

توماس مان

ترجمة: عماد منصور



عنوان الكتاب: ألواح موسى The Tables of the Law
المؤلف: توماس مان Thomas Mann
ترجمة: عماد منصور
مراجعة لغوية: محمد حمدي أبو السعود



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٨٣٧٦/ ٢٠١٩
الترقيم الدولى: 978-977-313-796-0


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الفصل 3

ألواح موسى

توماس مان

ترجمة: عماد منصور

الطبعة الأولى 2019



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مان، توماس

ألواح موسى/ توماس مان؛ ترجمة عماد منصور.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2019

109ص؛ 14.5×21.5 سم

تدمك 978-977-313-796-0

1 - القصص الإنجليزية

أ-منصور، عماد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2019/28276


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الفصل 4

(1)

كان ميلاده مخالفًا لنظام الأشياء، ولذلك عشقَ النظام، وهواه: الثابت، والمأمور به والمُحرَّم.

في بدايات عمره ارتكب فعل القتل في غمرة الجنون، لذلك كان يعرف أفضل من الساذج الغرّ، رغم أن القتل شيء ممتع، فأن تقتل هو أمر مثير للامتعاض، كان يعرف أنك ينبغي ألا تقتل.

كان شهوانيًّا، ولذلك توَّاقًا للروحاني، والنقي والمقدس - أي غير المرئي - فهذا وحده بدا له روحانيًّا، ومقدسًا، ونقيًّا.

بين أهل مديَن أقام، وهي قبيلة خفيفة الحركة من الرعاة والتجار المنتثرين في أرجاء الصحراء، وإليهم كان قد هرب من مصر، أرض ميلاده، لأنه كان قد قتل، ثم تعرَّف إلى إله لا يمكن للمرء رؤيته لكنه يراك. هذا الإله كان ساكنًا للجبال، وفي الوقت نفسه يستوي غير مرئي على صندوق يمكن نقله في خيمة، ومن هناك ينشر وسطاء الوحي لسحب القرعة. في نظر أطفال مديَن كانت هذه الروح الإلهية، باسم يهوه، إلهًا من بين آلهة كثيرة؛ لم يهتموا كثيرًا بخدمته، بل أن يكونوا فحسب في الجانب الآمن، تحسبًا لا غير، لأنه قد خطرَ لهم أنه بين الآلهة قد يوجد إله بلا جسد لا يستطيع المرء رؤيته، فكان عليهم تقديم القرابين إليهم حتى لا يفوتهم أي شيء، حتى لا يهينوا أي شخص، حتى يحبطوا أي سخط من أي جانب.

لكن موسى، بسبب توقه للنقي والمقدس، كان متأثرًا بشدة بمسألة عدم إمكانية رؤية يهوه؛ كان يؤمن بأن أي إله مرئي لا يمكنه التنافس في مجال القداسة مع آخر غير مرئي، وتعجَّب كثيرًا لأن أطفال مديَن لا يولون أهمية كبيرة لسمة بدت له ذات تأثيرات غير متناهية. في أثناء رعيه الغنم المملوك لشقيق زوجته المديَنية، انغمس في تأملات طويلة وعميقة وعنيفة. انفعل كثيرًا

بالإلهامات والرؤى التي غادرت ذات مرة وعيه الداخلي ثم عادت إلى روحه كرؤية ملتهبة آتية من الخارج، كإعلان مصوغ بكلمات دقيقة، وكأمر.

توصَّل بعد البحث إلى اقتناع بأن يهوه لم يكن سوى الإله "إيل"، الأعلى (El'eljon)، الإله الذي يراني (El ro'i)، ذلك الذي عُرف دائمًا باسم إله الجبال والبريّة (El Schaddai)، إله العالم والأبديات (El 'olām) - باختصار إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، إله آبائنا. وهذا يعني أنه إله الفقراء، البلهاء، المرتبكين في عبادتهم بالكامل، المشرَّدين، والقبائل المستعبَدَة في الوطن في مصر، الذين تتدفق دماؤهم، من ناحية والده، في عروق موسى.

ممتلئًا بهذا الاكتشاف، روحه مثقلة بالأوامر لكن مرتعشة أيضًا بالرغبة في إنجاز المهمة، أنهى موسى إقامته التي امتدت لسنوات طويلة مع أطفال مديَن. على بغلة، وضع زوجته صفوريا (امرأة نبيلة بما يكفي لأنها كانت ابنة روئيل "صديق الله"، الملك الكاهن لمديَن، وشقيقة ابنه مالك القطيع، جيترو(1)). أخذ أيضًا ابنيه غيرشوم وإليعازار، وعادَ مسافرًا في اتجاه الغرب، في رحلات استمرت كل منها سبعة أيام عبر صحارى كثيرة، نحو أرض مصر، أي إلى الأرض الأدنى، البلد الهاجع حيث يتفرع النيل إلى مقاطعة تسمَّى Kōs، التي تُعرف أيضًا باسم غوشيم وغوزين وغوشين. هناك كانت قبائل آبائه تعيش وتكدح.

(1) هو النبي شعيب في الدين الإسلامي – (المترجم)

هناك بدأ على الفور في نشر تجربته العظيمة بين أبناء عشيرته.. تحدث إليهم أينما ذهب ووقف، في أكواخهم، في أراضي رعيهم، وفي أماكن عملهم. عندما كان يتحدث كانت له طريقته الخاصة في ترك ذراعيه تتدليان بارتخاء على جانبيه، في حين ترتعش قبضتاه وتهتزان. أخبرهم أن إله آبائهم قد وُجدَ مرة أخرى، أنه عرَّف نفسه إليه، هو موشين بن عمرام، على جبل حوريب في صحراء سيناء من أجمة حُرقت لكنها لم تفنَ. هذا الإله كان يدعى يهوه، وهو اسم يُفهم كما يلي: "أنا من أنا، من الأبدية إلى الأبدية"، لكن أيضًا كهواء متفتق كصوت كليّ القدرة. هذا الإله حنا على قبيلتهم وكان مستعدًّا تحت ظروف معينة للدخول في ميثاق معهم، أن يختارهم ويصطفيهم من بين كل الشعوب الأخرى. كانت الشروط أن يكرِّسوا أنفسهم له، وله وحده، وأن يشكِّلوا أخوية محلّفة لخدمته وحده وعبادة غير المرئي، عبادة بلا صور.

اندفع موسى بينهم وقبضتاه ذواتا الرسغين العريضين ترتعشان. مع ذلك لم يكن أمينًا بالكامل معهم، فقد أخفى الكثير، الفكرة الجوهرية في الحقيقة، مما في عقله. بسبب خشيته من إفزاعهم، لم يذكر شيئًا بخصوص آثار تعذُّر الرؤية، أي الروحانية، والنقاء والقداسة. فضَّل ألا يشير إلى حقيقة أنهم كخدَم محلّفين لغير المنظور سيكون عليهم أن يكونوا شعبًا منعزلاً، شعب الروحانية، والنقاء والقداسة. خائفًا من ترويعهم اختار الصمت. كانوا بائسين للغاية، مضطهدين للغاية، مرتبكين في عبادتهم للغاية، هؤلاء من كانوا عشيرة أبيه. لم يثق بهم رغم حبّه لهم. نعم، عندما أعلن لهم أن يهوه غير المنظور كان حنونًا عليهم، فإنه بذلك عزا للإله وأوَّلَ للإله ما كان حقيقيًّا بشأن الإله، لكنه أخفى ما كان حقيقةً بشأنه هو: لأنه نفسه يحنو على عشيرة أبيه، كالنحَّات تجاه الكتلة عديمة الشكل التي يأمل نحتها وتحويلها إلى شكل سامٍ وأنيق، عمل يديه. من هنا كانت رغبته المرتعشة، من هنا كان الثقل الكبير على روحه الذي ملأه فور رحيله عن مديَن.

أخفى كذلك النصف الآخر من السر، فقد كان سرًّا مضاعفًا، لم يحوِ فقط الرسالة إلى قبيلته بشأن إعادة اكتشاف إله آبائه وحنو الإله عليهم، بل كذلك إيمانه بأنه مقدَّر له إرشادهم للخروج من موطن العبودية في مصر، إلى العراء، ثم عبر صحارى كثيرة حتى الوصول إلى أرض الميعاد، أرض آبائهم. ذلك القدَر كان جزءًا من المهمة، يرتبط بها ويلازمها. الإله غير المنظور، والتحرير من أجل العودة إلى الوطن، وإطلاق سراحهم من نير العبودية الدخيل: بالنسبة إليه كان كل هذا الفكرة الواحدة نفسها، لكن لشعبه لم يقل شيئًا رغم ذلك بشأن الجزء الآخر من المهمة، لأنه يعرف أن سرًّا سيتبع الآخر حتمًا، أيضًا لأنه كان يأمل أن يتمكن من التفاوض بشأن الانعتاق من فرعون، ملك مصر، الذي يتصل به على نحو غير بعيد تمامًا.

هل كان الأمر، رغم ذلك، أن خطابه قد أزعج شعبه - لأنه تحدث على نحو سيئ، متلعثمًا وعاجزًا غالب الوقت عن إيجاد الكلمة الصحيحة - أم أنهم تكهَّنوا وتنبؤوا، في أثناء هزّه لقبضتيه المرتعشتين، بآثار الانحجاب وتعذر الرؤية، وكذلك آثار الميثاق؟ هل تصوروا أنهم على وشك الوقوع في فخ الإغواء نحو مسائل خطيرة ومرهقة؟ أيًّا كان السبب فقد ظلوا مرتابين، متصلبي الأعناق، وخائفين من اندفاعه. رمقوا بغرام سادتهم المصريين بالسياط في أيديهم وتمتموا بكلمات غير واضحة:

"لماذا تقذف الكلمات بإسهاب كهذا؟ وما نوع الكلمات هذه التي تقذفها في وجوهنا؟ ربما نصّب أحدهم نفسه رئيسًا وقاضيًا علينا؟ حسنًا، نرغب في معرفة من هو".

لم يكن هذا أمرًا جديدًا عليه، كان قد سمعه ذات مرة من قبل، قبل أن يهرب إلى مديَن.

الفصل 5

(2)

أبوه لم يكن أباه، وكذلك أمه لم تكن أمه. بذلك كان ميلاده مضطربًا ومخالفًا لنظام الأشياء.

في أحد الأيام كانت الابنة الثانية للفرعون رمسيس تسلّي نفسها -تحت العين المنتبهة للحارس المسلح وفي صحبة الخادمات العذارى - في الحديقة الملكية المطلة على نهر النيل. هناك رأت من بعيد عاملاً عبرانيًّا كان يحمل الماء. صارت شغوفةً به. كانت عيناه حزينتين، وله لحية شابة تحيط بذقنه، وذراعان قويتان، كما يمكن للمرء أن يرى بوضوح في أثناء سحبه الماء. كان يعمل بعرق جبينه ولديه متاعبه، لكن بالنسبة إلى ابنة فرعون كان صورةً للجمال والرغبة. أمرت بالسماح بإدخاله إلى سرادقها. هناك غرست يديها الصغيرتين النفيستين في شعره الغارق في العرق، قبّلت عضلات ذراعيه وافتتنت برجولته حتى السهاد، بذلك استحوذ عليها تمامًا، هو، العبد الأجنبي، استحوذ على طفلة الملك. عندما استكفت منه، أطلقت سراحه، لكنه لم يذهب بعيدًا، فبعد ثلاثين خطوة ذُبح ودُفن سريعًا، حتى لا يبقى أثر من لذة ابنة الشمس.

"الرجل البائس"، قالت عندما سمعت بالأمر. "يا لكم من فضوليين دائمًا. كان له أن يبقى هادئًا، لكنه عشقني". بعد ذاك صارت حبلى، وبعد تسعة أشهر وضعت صبيًّا بسرية كاملة. وضعت المرأة الخادمة الصبي في صندوق من الخيزران المغطّى بالقار، ثم أخفوا الصندوق بين أعشاب البرك على حافة المياه. هناك في الوقت المحدد وجدوه وصاحوا، "يا له من سحر! لقيط، صبي يخرج من بين أعشاب البركة، طفل منبوذ! تمامًا كالحكايات القديمة، كما حدث مع سرجون الأكدي(2)، الذي وجده آكي ساقي ملك كيش بين الأجمة ونشّأه بطيبة قلبه. أشياء كهذه تحدث دائمًا. ماذا سنفعل الآن بلقيّتنا هذه؟ من الحكمة أن نعطيه لأم مرضعة، أم ذات منزلة متواضعة لديه حليب يمكنها الاستغناء عنه، بحيث يكبر الصبي كابن لها وكابن لزوجها الشرعي".

(2) مؤسس السلالة الأكادية في بلاد ما بين النهرين (2215 - 2270 ق. م) وقصة ميلاده لها نصيب في الأساطير السومرية – (المترجم)

ثم سلَّموا الطفل إلى امرأة عبرانية حملته إلى منطقة غوشين ثم منحته إلى يوكابيد، زوجة عمرام، الذي ينتمي إلى قبيلة اليهود التي سُمح لها بالوجود في مصر (المعفي عنهم)، من ذرية لاوي. كانت ترضع ابنها هارون ولديها فائض من الحليب، لذلك، وأيضًا لأنه من حين إلى آخر كانت تصل إلى كوخها بسرية تامة هدايا قيّمة من مصادر علوية، نجحتْ في تنشئة الطفل اللامنتمي بالخير في قلبها. أمام العالم صار عمرام ويوكابيد أبويه وهارون أخاه. كان عمرام يمتلك ماشيةً وحقولاً، ويوكابيد ابنة قاطع حجارة. لم تكن تعرف كيف تسمّي الطفل موضع الشك، لذلك منحته اسمًا نصف مصري، أي نصف اسم مصري، فأبناء الأرض كانوا غالبًا ما يُدعون باسم بتاخ-موسى، آمون-موسى أو رع-موسى. كانوا يسمّون كأبناء عبر أسماء الآلهة. فضَّل عمرام ويوكابيد حذف اسم الإله وتسمية الطفل "موسى" ببساطة. لذلك سمّيَ باسم "الابن" فقط. فكان السؤال الوحيد، ابن من؟

الفصل 6

(3)

نشأ وترعرع كواحد من "المعفي عنهم" وعبَّر عن نفسه بلهجتهم. كان أجداد هذه القبيلة قد جاؤوا إلى الأرض منذ وقت طويل في زمن القحط. هم من وصفهم مؤرخو فرعون بأنهم "بدو جائعون من إدوم(3)"، جاؤوا بعد الإذن الواجب من مسؤولي الحدود. كانوا قد تلقوا مزايا لرعي الماشية في مقاطعة غوشين في الأرض السفلى. أيّ من يعتقد أنهم تلقوا هذه المزايا بلا مقابل لا يعرف مستضيفهم جيدًا. أطفال مصر لم يجب عليهم فحسب سداد الضرائب على ماشيتهم على نحو تسبب في أذيتهم، لكن أيضًا كل من تمتع بالقوة من بينهم أُجبر على القيام بخدمات يدوية في عمليات البناء العديدة، التي كانت تجري دائمًا على قدم وساق على أرض مصر، خاصةً منذ أصبح رمسيس، الثاني بهذا الاسم، فرعونًا في طيبة. كانت عمليات البناء على أشدَّها، فالبناء كان متعته وموضع ابتهاجه الملكي. شيَّد معابد باذخة في أرجاء البلاد، ونزولاً إلى منطقة الدلتا لم يجدد ويحسِّن فقط القناة التي أُهملت كثيرًا، والتي تصل بين الذراع الشرقية للنيل والبحيرات المرَّة، وبالتالي المحيط العظيم مع زاوية البحر الأحمر، لكنه أيضًا شيَّد ترسانتين على ضفاف القناة باسم بيتوم ورمسيس. من أجل هذا العمل كان أطفال "المعفي عنهم" يُجنَّدون. كانوا يصنعون الحجارة في الأفران ثم يحملونها ويكدحون في عرق أجسادهم تحت ظل هراوة مصر.

(3) مملكة إدوم، اسم قديم للمنطقة الواقعة بين جنوب فلسطين وخليج العقبة، سكنها أحفاد عيسو توأم يعقوب – (المترجم)

هذه الهراوة كانت أكثر من مجرد رمز للسلطة الممنوحة لرقباء فرعون. لم يكن العمال يُضربون بلا ضرورة بها. كانوا يتمتعون أيضًا بطعام جيد بعد كدحهم: الكثير من أسماك النيل، والخبز، والجعة، ولحوم البقر، بوفرة كبيرة بقدر ما يحتاجون. رغم ذلك، لم يُظهروا اهتمامًا أو ميلاً في هذا العمل، فقد كانوا بدوًا رحَّلاً، ممتلئين بتقاليد حياة التجوال الحرة. العمل على مدار

الساعة، الجهد الذي أصابهم بالعرق، كان دخيلاً عليهم ومهينًا لطبيعتهم. رغم ذلك، لم تكن القبائل مدركةً ولا واعية بنفسها بما يكفي حتى تكون قادرة على التعبير عن استيائها بعضها لبعض، أو تكوين رأي ثابت واحد بشأنه، لأن العديد من أجيالها الذين كانوا قد عاشوا في أرض انتقالية، ينصبون خيامهم بين موطن آبائهم ومصر الحقيقية، أصبحوا الآن أرواحًا هائمة متقلبة بلا مرساة، بلا معتقدات راسخة. كانوا قد نسوا الكثير، نجحوا جزئيًا في استيعاب أفكار جديدة. ولأنهم كانوا يفتقدون التوجيه الحقيقي، فلم يثقوا بمشاعرهم الخاصة، بل لم يثقوا بالمرارة التي شعروا بها تجاه عبوديتهم، لأن الأسماك والجعة ولحوم البقر أصابتهم بالارتياب والشك.

موسى أيضًا، بصفته الابن المفترض لعمرام، كان مقدَّرًا له أن يشكِّل الأحجار من أجل فرعون فور أن خطا خارجًا من حدّ الصبا. لكن هذا لم يستمر، فقد انتزعوا الشاب من أبويه وجاؤوا به إلى مصر العليا في إحدى المدارس، أكاديمية ذات أبهة عالية يتعلم فيها أبناء ملوك المدينة السورية وسليلو النبلاء المحليين. إلى هناك أُخذَ، لأن أمه الحقيقية، طفلة فرعون، التي أتت به إلى أجمة البركة، لم تكن، رغم فجورها النسبي، عديمة الشعور. كانت قد تذكَّرته لخاطر أبيه المدفون، الساقي ذي اللحية والعينين الحزينتين. لم تكن تريد لموسى أن يظل مع المتوحشين، بل تمنت له أن يتعلم كمصري وأن ينال منصبًا في البلاط الملكي. لذلك، كان أصله نصف الإلهي لينال نصف اعتراف في صمت. مرتديًا الكتان الأبيض وبشعر مستعار على رأسه، تحصَّلَ موسى على معرفة النجوم والبلدان، وفن الكتابة والقانون. مع ذلك لم يكن سعيدًا بين المغرورين والمزهوين بأصلهم الملكي في الأكاديمية الراقية، بل وحيدًا كان بينهم، ممتلئًا بالكراهية تجاه ثقافة مصر الراقية بكاملها. كانت دماء المدفون الذي قُدِّم قربانًا لهذه الثقافة أقوى في داخله من نصفه المصري. وفي روحه انحاز للمرتابين الفقراء في الوطن في غوشين، الذين لم يتمتعوا حتى بشجاعة الشعور بالمرارة. انحاز إليهم ضد العجرفة الداعرة لعشيرة أمّه.

"قلتَ ما هو اسمك؟" كان رفقاؤه في المدرسة يسألونه.

"أدعى موسى"، يجيبهم.

"آخ-موسى أم بتاخ-موسى؟" يسألونه.

"لا، موسى فحسب"، كان ردّه.

"هذا غير كافٍ وصغير"، يقول للمتبجّحين، ثم يحترق غضبًا، إلى حدِّ أنه يفكِّر تقريبًا في قتلهم ودفنهم، فقد كان مدركًا أنهم بهذه الأسئلة يرغبون فحسب في التلصص على تاريخه الملتبس، الذي كان معروفًا للجميع بصورة ضبابية. هو نفسه لم يكن ليعرف أنه كان النتيجة الحذرة للذة المصرية، إن لم يكن تاريخه معلومة شائعة، رغم عدم دقتها بعض الشيء. فرعون نفسه كان مدركًا للمغامرة العابثة لطفلته تمامًا كما كان موسى مدركًا لحقيقة أن رمسيس، البنَّاء السيد، كان جدّه غير الشرعي، وأن أبوته كانت نتيجة للذة جائرة، داعرة، وقاتلة. نعم، كان موسى يعرف هذا، وكان يعرف أيضًا أن فرعون يعرفه. وعندما فكَّر في ذلك أمالَ رأسه متوعدًا، أماله في اتجاه عرش فرعون.

الفصل 7

(4)

بعد أن عاش لمدة سنتين بين المتغطرسين في المدرسة في طيبة، لم يعد باستطاعته تحمُّل الأمر، هرب ليلاً من فوق الحائط، وتطوَّفَ هائمًا متجهًا إلى موطنه في غوشين، إلى قبيلة أبيه. بملامح قاسية جابَ بينهم بلا هدف، وفي أحد الأيام رأى عند القناة بالقرب من الأبنية الجديدة في رمسيس، كيف كان أحد المراقبين المصريين يضرب بهراوته واحدًا من العمال، الذي ربما كان كسولاً أو متعنتًا. امتقعَ موسى. بعينين متوهجتين أعلن تحديه للمصري، الذي استجاب سريعًا وحطَّم أنفه، فعاش موسى بقية حياته بأنف ذي قنطرة مكسورة مفلطحة. قبض موسى على الهراوة من المراقب، طوَّحها بقوة، ثم حطَّم جمجمة الرجل فسقط ميتًا في مكانه. لم يتلفت موسى حوله ولو بنظرة خاطفة لرؤية إن كان أحد قد لاحظ ما حدث. لحسن الحظ كان مكانًا مهجورًا بلا روح واحدة في القرب، لأن ذلك الذي دافع عنه موسى كان قد هربَ من فوره. بعد أن انتهى الأمر، شعر بأن القتل والدفن هما ما كان يريده دائمًا في روحه.

ظلَّت فعلته المتوهجة مختفية على الأقل عن أعين المصريين، الذين لم يكتشفوا قط ما حلَّ برجلهم. مضت سنة ويوم على الفعلة. تابع موسى التطواف بين شعبه والتلصص على مشاجراتهم متمتعًا بحس فريد من السلطة. لذلك حدث ذات مرة أن رأى عبدين يتعارك أحدهما مع الآخر، كانا على وشك الانغماس في العنف. "من أجل ماذا تتعاركان وينشد كلاكما ضرب الآخر؟" قال لهما. "ألا يكفي ما أنتما فيه من بؤس وتجاهل؟ أليس من الأفضل لابن العشيرة أن يقف بجانب أخيه بدلاً من التكشير عن أنيابه له؟ هذا هو المخطئ: رأيته. دعه يقر بهزيمته واسعد بذلك، لا تدع الغريب الآخر ينتصر".

لكن كما يحدث عادةً، اتحد كلاهما فجأة ضده، وقالا له: "ما شأنك أنت؟". هاجمه الطرف المخطئ خاصةً بشدة، وصاح بأعلى صوته: "حسنًا، هذا ينهي كل شيء! من أنت حتى تحشر أنفك الحقير في مسائل لا تخصك؟ أهاه! أنت موشيش، ابن عمرام، لكن هذا لا يعني شيئًا. لا أحد

يعرف حقًّا من أنت، ولا حتى أنت نفسك تعرف من أنت. يقتلنا الفضول لمعرفة من قام بتعيينك سيدًا وقاضيًا علينا. ربما ترغب في خنقي أيضًا، كما خنقت المصري ودفنته؟"

"اهدأ"، همس موسى، متنبهًا للخطر. وفكَّر، "كيف عرفوا هذا؟" لكن في ذلك اليوم تحديدًا فهم أنه لم يعد ممكنًا له البقاء في البلاد، فهرب عبر الحدود في الموضع الذي توجد فيه ثغرة في الحدود، قرب المياه الضحلة الطينية للبحيرات المرَّة. عبر صحارى كثيرة في أرض سيناء هامَ وتطوَّف، ثم جاء إلى مديَن، إلى أهل مديَن، وإلى ملكها الكاهن، ريو-إيل(4).

(4) "جيترو" كما يشار إليه في الأسفار الأولى من التوراة – (المترجم)

الفصل 8

(5)

عندما رجعَ إلى مصر، مفعمًا باكتشافه وبمهمته، كان رجلاً في ذروة قوته، متين البنيان، بأنف غارق وعظام وجنتين بارزة، بلحية منقسمة، وعينين متباعدتين، ورسغين عريضين للغاية. كان من عاداته عندما يستغرق في تأملاته أن يغطي فمه ولحيته بيده اليمنى، وحينها كان هذان الرسغان العريضان يبرزان للعيان بأوضح شكل. انطلق من كوخ إلى كوخ ومن محل عمل إلى آخر، يهز قبضتيه على جانبَي جسده ويتحدث عن غير المنظور، إله الآباء، الذي كان مستعدًّا للميثاق. في الحقيقة لم يكن موسى يتحدث على نحو جيِّد. كانت طبيعته مترنحة ومكبوتة، وعندما يستثار يميل إلى التلعثم. لم يكن أيضًا ضليعًا بأي لغة، لكنه يتخبط في ثلاث لغات. اللغة الآرامية - السريانية - الكلدية، التي كانت لغة عشيرة أبيه والتي كان قد تعلَّمها من أبويه، ثم صُقلت بالمصرية التي اضطر إلى تعلُّمها في مدرسة طيبة، وإلى هذا أضيفت العربية-المديَنية التي تحدث بها كثيرًا في الصحراء. في داخله اختلطت هذه اللغات الثلاث معًا.

بذلك كان أخوه هارون عونًا كبيرًا له، رجل طويل بلحية سوداء ولفائف سوداء من الشعر على ظهر عنقه. كان هارون رقيقًا مبقيًا دائمًا على جفنيه الكبيرين والمتقوّسين منخفضين بتقوى. كان موسى قد أعلم هارون بكل معتقداته ونجح في اكتسابه إلى صفِّه بالكامل لمناصرة قضية غير المنظور وآثارها المترتبة، لأنه كان يعرف كيف يتحدث من تحت لحيته بطلاقة وتزلُّف، انطلق مصاحبًا موسى في جولاته الوعظية ومنيبًا عنه في التحدث. لا يمكن إنكار أنه كان يتحدث بأسلوب مداهن بعض الشيء، وليس حتى جذابًا وساحرًا بما يلائم موسى، لذلك كان موسى، مشتركًا في الحديث بقبضتيه المرتعشتين، يسعى إلى إضفاء بعض الحماسة والانفعال على كلمات أخيه، وأحيانًا ما ينطق بغير تفكير بخليط فوضوي من الكلمات بلغته الآرامية-المصرية-العربية.

كانت زوجة هارون تُسمَّى إليشيفا، ابنة عميناداب. شاركت أيضًا في العهد ونشر الدعوة، وكذلك فعلت ميريام الشقيقة الصغرى لموسى وهارون، امرأة ملهمَة تجيد الغناء وضرب الدفوف. كان موسى مغرمًا على نحو خاص بتابع آخر كذلك، شاب كرَّس نفسه روحًا وجسدًا لخططه، ولم يتوقف عن مساندته. اسمه الحقيقي كان هوسيا، ابن نون (الذي يعني "السمك")، من قبيلة إفرايم. منحه موسى، رغم ذلك، اسم يهوه، يهوشوا - يوشع اختصارًا. كان يوشع منتصب القامة، مشدودًا، وبرأس ذي شعر مَجدول، وتفاحة آدم نافرة وتجعيدة بارزة بين حاجبيه. مضى باسمه بين الناس مفتخرًا، رغم تمتعه بآرائه الخاصة عن المسألة بكاملها، آراء لم تكن دينية بقدر ما كانت عسكرية. بالنسبة إليه، كان يهوه، إله الآباء، في الأصل إلهًا للقوى المتحاربة. الفكرة المتصلة بالإله، أي فكرة التحرر من بيت العبودية، كانت في نظره متطابقة مع فكرة غزو أرض رعي جديدة حتى تصبح فقط في أيدي القبائل العبرانية. كان هذا منطقيًّا بما يكفي، فقد اضطروا إلى العيش في مكان ولم يكن لأحد أن يمنحهم أي أرض، موعودة كانت أم لا، كهبة.

حمل يوشع، بشبابه المترع، بين جنباته الحقائق كلها بارزةً في عينيه الرائقتين ورأسه المجعد، وناقشها بلا انقطاع مع موسى، سيّده وصديقه الأكبر سنًّا. بلا أي وسيلة لتنفيذ إحصاء دقيق، كان يوشع قادرًا على حساب أن القوة التي تتمتع بها القبائل المعسكرة في غوشين أو التي تعيش في مدن العبيد، بيتوم ورمسيس، بمن فيهم أيضًا العبيد المنتشرون في أنحاء البلاد، تبلغ اثني عشر أو ثلاثة عشر ألف فرد. كان هذا يعني إمكانية وجود ثلاثة آلاف رجل قادر على حمل السلاح. لاحقًا، بُولِغَ كثيرًا في هذه الأرقام، لكن يوشع كان يعرفها على نحو صحيح، وصار راضيًا بعض الشيء تجاهها. ثلاثة آلاف رجل. لم تكن قوة محاربة تسبب الرعب، حتى إذا اعتمدت على حقيقة أنه فور اتخاذ الطريق فإن الكثير من القبائل من الأقرباء الهائمة في الصحراء ستنضم إليها في سبيل اكتساب أرض جديدة. بقوة كهذه لا يمكن للمرء أن يحلم بأي استكشافات جديدة، بقوة كهذه ليس من العملي أن يشق المرء طريقه في الأرض الموعودة. كان يوشع يفهم ذلك جيدًا. خطته، لذلك، كانت أن يبحث بداية عن بقعة في العراء، وتحديد الوقت وأماكن الراحة، حيث يمكن للقبائل الاستيطان وتكريس نفسها لمسألة التأثيرات الطبيعية في ظل ظروف مواتية بعض الشيء. هذا النمو الطبيعي يُقدَّر -وفقًا لمعرفة يوشع بشعبه - باثنين ونصف في المئة سنويًّا. كان الشاب منخرطًا دائمًا في السعي إلى مكان مسيَّج للتفريخ، حيث يمكن للقبائل توليد المزيد من القوى المحاربة. وفي مشاوراته المتكررة مع موسى بدا أن يوشع

كان يرى بوضوح مفاجئ أين يقع أي مكان في العالم بالنسبة إلى مكان آخر. يحمل في رأسه ما يشبه الخريطة لكل المقاطعات المثيرة للاهتمام، يعرف أبعادها مُقاسة بمسيرات ضوء النهار، أماكن السقاية فيها، وخاصة القوة المحاربة لسكانها.

كان موسى مدركًا للكنز الذي يملكه في يوشع، يدرك أيضًا أنه قد يحتاج إليه، وأحبَّ حماسه، رغم أنه كان متخوفًا بعض الشيء من الأهداف المباشرة لذلك الحماس. مخفيًا فمه ولحيته بيده اليمنى، كان يستمع إلى النظريات الإستراتيجية للشاب، متأملاً طوال الوقت في شيء آخر. بالنسبة إليه كان يوشع يعني أيضًا خروجًا وهجرة جماعية، لكنه ليس خروجًا من أجل حرب لاقتناص أرض، بل بالأحرى خروجًا من أجل العزلة. بعيدًا في العراء كان موسى ليختلي بعشيرة والده، تلك الأرواح المتأرجحة ذات المعتقدات المرتبكة، الرجال المتكاثرين، النساء المرضعات، الشبَّان المستثارين، الأطفال ذوي الأنوف المتربة. هناك في العراء سيكون قادرًا على إقناعهم بالإله المقدس، غير المنظور، بالإله النقي الروحاني، هناك سيمنحهم هذا الإله كمركز يوحِّدهم ويشكِّلهم، يشكِّلهم على صورته، يشكِّلهم إلى شعب مختلف عن كل الشعوب الأخرى، شعب ينتمي إلى الله، شعب يُرمز إليه بالمقدس والروحاني، ويتميَّز عن كل الشعوب الأخرى بالإجلال، والقيد، والخوف من الله. إن شعبه سيعتنق بإجلال شريعةً تقييدية، نقية، روحانية، شريعةً ستضم وتوحد في المستقبل، لأن غير المنظور هو في الحقيقة إله العالم بكامله، إله كل الشعوب، لكنها ستُمنح في البداية إليهم فحسب وستكون مزيتهم الصارمة بين الوثنيين.

هكذا كان نزوع موسى إلى دماء آبائه، كان نزوع النحَّات، وقد تعرَّف إليه حسب اختيار الله ورغبة الله في عقد الميثاق، لأن موسى كان مؤمنًا بأن البحث في الله يجب أن يسبق كل المغامرات الأخرى، كالمغامرات التي يحملها يوشع في رأسه، ولأنه كان يعرف أن البحث سيستغرق وقتًا -الوقت الحر المتوافر في العراء - فلم يمانع في وجود مفرخ بعيد جدًّا كما يتخيله يوشع في خططه، وهي خطط تجمدت بفعل العدد غير الكافي من المحاربين. يحتاج يوشع إلى زمن طويل حتى يمكن لشعبه التكاثر بطريقة طبيعية.. يحتاج أيضًا إلى زمن حتى يزداد هو نفسه سنًّا، حتى يصبح عجوزًا بما يكفي لتنصيب نفسه قائدًا عسكريًّا، في حين يحتاج موسى إلى زمن من أجل أعمال البحث والاطلاع التي يرغب فيها في سبيل الله. لذلك توصلا إلى اتفاق، وإن كان لأسباب مختلفة لدى كل منهما.

الفصل 9

(6)

في هذه الأثناء فإنه هو، مبعوث الرب، وتابعوه المباشرون، هارون البليغ، وإليشبا، وميريام، ويوشع، وشخص آخر يدعى كالب(5)، الذي كان صديق يوشع المقرَّب، وكلاهما من السن نفسها، ويتمتعان أيضًا بالشباب القوي والساذج والشجاع - في هذه الأثناء، لم يضيّعوا أي وقت، ولو ليوم واحد. انشغلوا بنشر رسالة يوشع وعرضه المغري بالاتحاد بين شعبه. استمروا في تأجيج مرارة الشعب ضد العبودية تحت الهراوة المصرية، وزرعوا على نحو أكثر عمقًا فكرة أن نير العبودية لا بد أن ينكسر عبر الهجرة. كلٌّ منهم فعل ذلك بطريقته: موسى نفسه عبر التلعثم في الكلمات وهزّ القبضتين، هارون بحديثه المتدفق المتزلف، إليشبا بثرثرتها المقنِعة، يوشع وكالب في صورة قيادة عسكرية، بشعارات قصيرة ومقتضبة، وميريام، التي سريعًا ما عُرفت باسم "النبيَّة"، بنغمة راقية بمصاحبة الدفّ. لم يجد وعظهم أرضًا جرداء، ففكرة تحالفهم مع إله موسى كانت أمرًا مقبولاً حتى يصبحوا الشعب المختار لغير المنظور، وتحت رايته وراية المنادي به يرتحلون إلى العراء - هذه الفكرة تجذَّرت بين القبائل وبدأت في تشكُّلها كمركز لاتحادهم. هذا على نحو خاص لأن موسى قد وعد، أو الأقل قدمه كإمكانية مأمولة، بأنه سيتمكن من الحصول على إذن من أجل رحيلهم عن مصر عبر مفاوضات على أعلى مستوى، ليمكن لهذا الرحيل ألا يتخذ صورة ثورة مليئة بالمخاطر، بل اتفاق ودي. كانت القبائل على علم، وإن لم يكن على نحو دقيق، بميلاد موسى نصف المصري بين أجمة البركة. كانوا على علم أيضًا بتعليمه الراقي وبصلاته الغامضة مع البلاط الملكي. ما كان في السابق سببًا لغياب الثقة والنفور، أي حقيقة أنه كان نصف أجنبي، وأنه يقف بقدم واحدة في مصر، غدا الآن مصدرًا للثقة ومنحه السلطة عليهم. بالتأكيد، حتى إن كان مجرد أي شخص، فقد كان هو الرجل الذي سيقف أمام فرعون لمناصرة قضيتهم والدفاع عنها، لذلك فوَّضوه لمحاولة تحريرهم وإطلاق سراحهم من رمسيس، البنَّاء والسيد. فوضوه هو وأخاه من الرضاعة، هارون. كان موسى قد خطط لاصطحاب هارون في مسيرته الكبرى، لأن موسى لم يكن يتحدث بطلاقة هارون،

وكذلك لأن هارون يتمتع بخدع معينة يأمل من خلالها خلق انطباع جيد لدى البلاط الملكي على شرف يهوه. كان بإمكانه أخذ أفعى مقنَّعة وبالضغط على عنقها تحويلها إلى عصا صلبة.. مع ذلك فور أن يضع عصاه على الأرض، فإنها تلتفّ وترتفع وتتحول إلى "حية تسعى". لم ينتبه موسى ولا هارون إلى حقيقة أن هذه المعجزات كانت معروفة جيدًا لسحرة فرعون، وأنها بالتالي بالكاد ستقدم دليلاً مرعبًا على قدرة يهوه.

(5) كالب بن يوفنا، أحد أصحاب النبي موسى وزوج شقيقته ميريام – المترجم

إجمالاً، لم يصادفهما حظ كبير - ربما كان يجب عليهما الانتباه لهذا سلفًا - رغم حرفيَّتهما في تخطيطهما لحملتهما بالتشاور مع الشابين يوشع وكالب. في هذا المجلس تقرر طلب إذن الملك فقط في أن يتمكَّن الشعب اليهودي من التجمُّع والسفر لمدة ثلاثة أيام عبر الحدود إلى الصحراء، ليمكن عقد احتفال لتقديم القرابين إلى الإله الذي كان قد قدَّم دعوته، وبعدها يعودون لاستئناف العمل. لم يتوقعوا بالطبع أن فرعون سيبتلع هذه الحيلة أو أنه سيصدق فعلاً مسألة عودتهم. كانت مجرد صورة مخففة ومهذَّبة يمكنهم بها تقديم التماسهم من أجل التحرر من العبودية. لكن الملك لم يشكرهم عليها.

رغم ذلك، ينبغي الاعتراف بفضل الشقيقين بعد أن نجحا على الأقل في دخول البيت العظيم والوقوف أمام عرش فرعون، وليس لمجرد مرة واحدة، بل مرات ومرات من أجل مؤتمرات مطوَّلة مضت على نحو عنيد ومتصلِّب. في كل هذا لم يكن موسى قد وعد شعبه بالكثير، فقد اعتمد على حقيقة أن رمسيس كان جدّه السري وغير الشرعي، وأن كليهما يعرف أن كليهما يعرف هذه الحقيقة. كان موسى يتمتع بورقة رابحة في يديه كانت، إن لم تكفِ لاقتناص إذن الملك في الخروج والهجرة الجماعية، ذات قوة كافية لمنحه جمهورًا مرة بعد أخرى لدى العظيم الجبَّار، لأن فرعون امتلأ خشيةً من موسى. وبالنظر إلى أن خوف الملوك أمر خطير، فإن موسى كان يلعب لعبة خطيرة. كان شجاعًا -سنرى قريبًا مقدار شجاعته، والانطباع الذي خلقه عبر هذه الشجاعة لدى شعبه. كان من السهل على رعمسو أن يأمر بخنق موسى ودفنه بهدوء، فلا يتبقَّى أي أثر في الحقيقة من طيش طفلته. لكن الأميرة تحتفظ بذكرى عاطفية عن تلك الساعة، ومن الواضح أنها لم تكن ترغب في إيقاع الأذى بصبي أجمة البركة الذي أنجبته. كان

يقف في ظل حمايتها، غير ممتن رغم ذلك لحماستها وغيرتها وكل خططها بشأن تعليمه وتقدُّمه.

لذلك كان موسى وهارون قادرين على الوقوف أمام فرعون، حتى إن رفض على نحو قاطع العطلة الاحتفالية في العراء، التي زعما أن إلههما قد دعاهم إليها. لم يُجدِ الأمر شيئًا أن هارون تحدث بمنطقة الزلق، في حين كان موسى يهز قبضتيه بانفعال. لم يُجدِ الأمر شيئًا أن هارون قد قلبَ عصاه إلى حية تسعى، فقد فعل سحرة فرعون الأمر نفسه بلا مجهود يُذكر، مثبتين بذلك أن غير المنظور الذي تحدث كلاهما باسمه لا يتمتع بأي قوى علوية، وأن فرعون لا يحتاج إلى الإنصات لسيدٍ كهذا.

"لكن الطاعون أو السيف سيتفشَّى بين شعبنا إذا لم نرحل لثلاثة أيام ونستعد للاحتفال بإلهنا"، قال الأخوان.

أجابهما الملك: "لا شأن لي بهذا. أنتم كثيرون بما يكفي، أكثر من اثني عشر ألف شخص قوي، وستتمكنون من احتمال هذا الانتقاص، سواء أكان بسبب الطاعون أم السيف أم العمل الشاق. ما ترغبان فيه حقًّا، يا موسى وهارون، هو السماح بالبلادة والكسل بين شعبكما، السماح لهم بالتبطُّل في أعمالهم الشرعية. لكن ليس باستطاعتي السماح بهذا. لديَّ الكثير من المعابد غير المسبوقة لم يكتمل بناؤه بعد. علاوة على ذلك، أرغب في بناء ترسانة ثالثة تضاف إلى بيتوم ورمسيس، لذلك أحتاج إلى أذرع شعبكم. أقدِّر كثيرًا حديثك المنطلق، وأنت، يا موسى، لتنصرف الآن حاملاً معروفًا بعينه، لكن لا كلمة أخرى عن احتفالات الصحراء".

انتهت المقابلة، وليس فقط أنها لم تكشف عن أي شيء جيد، بل أثمرت نتائج وخيمة للغاية. بالنسبة إلى فرعون، فإن حماسته للبناء قد أهينت، وشعر بالضيق لأنه يعلم أنه لا يستطيع خنق موسى حتى الموت -وإلا فإن ابنته ستثير اللغط - بالتالي أصدر أمره بتحميل شعب غوشين بمزيد من الأعمال الشاقة مقارنةً بما سبق، وألا تُرفع الهراوة عنهم في حالة تلكئهم، بالعكس، يجب استعبادهم حتى تُستنزَف قواهم، لتختفي من عقولهم الأفكار المتبطلة عن احتفالات الصحراء. وهذا ما حدث. ازداد العمل الشاق والكدح صعوبةً وقسوةً من يوم إلى آخر للسبب نفسه الذي تحدث به موسى وهارون إلى فرعون. مثلاً، فإن القش الذي كان يحتاجون إليه

لصناعة الحجارة لم يعد يُقدَّم إليهم. اضطروا إلى الذهاب بأنفسهم إلى الحقول بغرض جمع بقايا الحصاد، ولم يكن عدد الأحجار الواجب تسليمه ليقل رغم ذلك. كان ينبغي أن يصل ذلك العدد بالضبط وإلا فإن الهراوة ستسقط على ظهورهم البائسة. بلا طائل احتج رؤساء العمال العبرانيون لدى السلطة بسبب المطالب الفادحة. كانت الإجابة "أنتم كسالى، كسالى أنتم، لذلك تصيحون وتقولون: نرغب في الهجرة وتقديم القرابين. يظل الأمر كما هو: اجمعوا القش بأنفسكم، وسلِّموا العدد نفسه من الأحجار".

الفصل 10

(7)

بالنسبة إلى موسى وهارون لم يكن هذا مجرد حرج صغير. قال لهم رؤساء العمال: "الآن تريان النتيجة. هذا ما حلَّ بنا نتيجة العهد الذي قطعتماه مع إلهكما. لم تنجزا شيئًا سوى أن جعلتما صورتنا أكثر سوءًا أمام فرعون وخدمه، وأنكما وضعتما السيف في أيديهم حتى يذبحونا به".

كان من الصعب الرد على هذا، وقضى موسى ساعات ثقيلة الوطأة وحيدًا مع إله أجمة الشوك. واجهَ الإله بحقيقة أنه كان من اللحظة الأولى ضد مهمته، ومن البداية تضرَّع أن أيًّا من سيختار الإله سيرسله، ألا يرسله هو تحديدًا بأي حال، فهو عاجز عن التحدث كما ينبغي. لكن الإله أجابه أن هارون كان فصيحًا. كان هذا صحيحًا بالفعل، فقد تولَّى هارون الحديث، لكن بأسلوب زلق للغاية، وبدا من العبث الشديد أن يضطلع بقضية كهذه بلسان ثقيل، فاضطر إلى الاستعانة بالآخرين حتى يتضرعوا بالإنابة. لكن الإله منح موسى العزاء وأقام عليه عدالة العقاب من روحه ذاتها. أجاب موسى من روحه ذاتها أنه ينبغي أن يخجل من فتوره. كانت أعذاره انفعالاً محضًا، ففي أعماقه كان يتوق للمهمة، لأن هو نفسه كان حنونًا تجاه شعبه وتشكيلهم تمامًا كحنو الإله. مع ذلك، كان من المستحيل التمييز بين حنوِّه وحنو الإله، كان الحنو الواحد نفسه. هذا الحنو هو ما قاده نحو العمل، وأنه ينبغي أن يشعر بالعار من قنوطه عند أول بليّة.

نجحَ موسى في إقناع نفسه، وازداد اقتناعًا بعد التشاور مع يوشع، وكالب، وهارون، والنساء الملهمات، حتى وصلوا إلى القناعة الراسخة والفهم الصحيح بأن البداية، رغم ازدياد الظلم والجور، وما نشأ عن ذلك من ضغائن، لم تكن سيئة تمامًا. فالضغائن لن تتشكل ضد موسى وحده فحسب، لكن أيضًا وخصوصًا ضد المصريين، وستجعل الشعب أكثر إدراكًا واستجابةً لدعوة الإله المنقِذ ولفكرة الخروج الكبير. وهذا ما وقع حقًّا. بين العمال تفشَّى الاستياء المتولد عن مسألة القش والأحجار، والاتهام بأن موسى جعل صورتهم أكثر سوءًا أمام فرعون، ولم

يتسبب إلا في أذيتهم، اتخذ موضعًا متأخرًا وراء الرغبة في أن يستغل ابن عمرام اتصالاته ويذهب إلى فرعون بالنيابة عنهم مرة أخرى.

هذا ما فعله، لكن دون صحبة هارون. وحيدًا ذهب، لا مباليًا، بحديثه البطيء المتراخي، يهزُّ قبضتيه أمام العرش ويطالب بكلمات متلعثمة وغائصة بالإذن للخروج من أجل الاحتفالية في الصحراء. لم يفعل هذا مرة واحدة بل مرات كثيرة، لأن فرعون لا يمكنه ببساطة منعه من الدخول إلى العروش، إذًا كانت صلات موسى رائعة. انقلب الأمر إلى معركة بين موسى والملك، معركة عنيدة وممتدة، لم تكن نتيجتها موافقة الملك على الالتماس والسماح بالرحيل فحسب، لكن بالأحرى أنه في أحد الأيام قادَ وطاردَ شعب غوشين من أرضه، سعيدًا للغاية بالتخلص منهم. كان هناك الكثير من الأحاديث حول هذه المعركة، والإجراءات التهديدية الكثيرة التي استُخدمت ضد الملك المقاوِم العنيد. هذه الأحاديث ليست بلا أساس بالكامل، رغم أنها خضعت للكثير من التنميق والتجميل. الأحاديث التقليدية عن الضربات العشر، واحدة بعد الأخرى، التي ضرب بها يهوه مصر، من أجل إنهاك فرعون، وفي الوقت نفسه أصاب بالقساوة قلب فرعون عن عمد ضد مطالبات موسى، من أجل إثبات قدرته على إرسال ضربات متجددة دومًا. الدم، الضفادع، القمل، الوحوش، البثور التي لا تشفى، الطاعون، إنزال البرد والنار، الجراد، الظلام، موت الأطفال البكور، هذه كانت أسماء الضربات العشر، وكان لأي منها أو جميعها أن تقع. كان السؤال ما إذا كان أي منها، باستثناء الأخيرة، التي لم تتمتع مطلقًا بتفسير واضح ومكتمل، سيساهم جوهريًّا في النتيجة النهائية. تحت ظروف معينة سيبدأ نهر النيل في التحول إلى التلوُّن بالدم الأحمر، تصبح مياهه غير قابلة للشرب مؤقتًا وتموت الأسماك. من المحتمل أن يحدث هذا أيضًا نتيجة تكاثر ضفادع المستنقعات على نحو غير طبيعي، أو أن يتزايد انتشار القمل الموجود دائمًا حتى يصل إلى درجة الوباء العام. كانت هناك وفرة من الأسود التي تُركت في مصر وغدت تطوِّف على حافة الصحارى وتختبئ في قيعان الأنهار الجافة للغاية. وإذا زادَ عدد هجماتها الضارية على الإنسان والحيوان فجأةً، فيمكن للمرء بمنتهى الأريحية اعتباره طاعونًا. كم أصبحت شائعة القروح الجلدية وأمراض الناسور في أرض مصر، وكيف استطاعت القذارة أن تتسبب بسهولة في انتشار تآكل الفم بين الشعب كالطاعون! السماوات هناك زرقاء في المعتاد، وبالتالي فإن العواصف الرعدية النادرة والثقيلة تزيد الانطباع وطأةً، عندما تختلط النار الهابطة من السحب مع الحصوات الصغيرة للمطر الثلجي، مرجفةً

المحاصيل وممزقةً الأشجار إربًا - كل هذا بلا غرض معين. الجراد أيضًا ضيف مألوف للغاية، مقابل جحافله المتقدمة اخترع الإنسان الكثير من الحواجز والمواد الطاردة. مع ذلك كثيرًا ما يسيطر عليها الجشع، فتظل مناطق بكاملها فاغرة الفم في العراء الأجرد. ومن يعرف المزاج المظلم الكئيب الذي تتسبب فيه شمس محجوبة عن الأرض يمكنه أن يفهم جيدًا أن الأناس المعتادين على رفاهية الضوء يمكنهم منح كسوف كهذا اسم الطاعون.

بهذا تم تفسير كل الشرور التي أخبر عنها. فالشرُّ العاشر، موت الأطفال البكور، لا ينتمي فعليًّا إليها، فهو لا يمثِّل سوى منتج ثانوي ملتبِس للخروج نفسه، منتج يبحث فيه المرء على نحو مزعج. بعض الشرور الأخرى، أو حتى جميعها، عند امتدادها على فترة زمنية كافية، قد تحدث حقًّا. يحتاج المرء إلى اعتبار أنها مجرد إسهابات زخرفية للضغط الفعلي الوحيد الذي يمكن لموسى استخدامه ضد رعمسو، أي ببساطة حقيقة أن فرعون كان جدًّا غير شرعي وأن موسى لديه الوسائل اللازمة لنشر الفضيحة إلى خارج البلاد. غدا الملك أكثر من مرة على شفا الاستسلام لهذا الضغط، فقد قدَّم تنازلات كبيرة على الأقل. منح موافقته للرجال على الرحيل من أجل احتفال القرابين إذا خلَّفوا وراءهم زوجاتهم وأطفالهم وماشيتهم. لم يقبل موسى بهذا، مع الشباب والعجائز، مع الأبناء والبنات، مع الماشية والأغنام، كان عليهم أن يرحلوا، حتى يوفوا حق الاحتفال بالسيد الإله. لذلك، تنازل فرعون عن مسألة الأزواج والذرية واستثنى الماشية التي ستبقى كغرامة. لكن موسى سألَ: أين لهم أن يجدوا قرابين لحرقها وذبحها إذا تخلَّوا عن ماشيتهم؟ ولا حتى حافرًا واحدًا، طالبَ بذلك، سيبقى وراءهم، بالتالي غدا من الواضح أنها ليست مسألة عطلة بل مسألة رحيل.

ترتَّب على ذلك مشهد عاصف أخير بين جلالته المصري ومبعوث يهوه. في أثناء المفاوضات جميعها كان موسى قد أظهر صبرًا كبيرًا، رغم الغضب وهز القبضة الكامن في روحه. وصلَ الأمر إلى حد أن فرعون غامرَ بكل شيء وحرفيًّا بيَّن له الطريق إلى الباب. "اخرج"، صاح، "واحذر إذا رأيتك مرةً أخرى، لأنك ستموت حينها".

حينها، أصبح موسى، الذي كان مهتاجًا بشدة، هادئًا تمامًا ولم يجبه إلا بقوله: "لقد نطقت بها. سأرحل ولن آتي ثانيةً أبدًا إلى مجلسك". ما كان يشغل تفكيره عندما غادر بهذه الطريقة، وبهدوء مريع، لم يكن على هواه. لكن يوشع وكالب الشابين كانا راضيين عن ذلك تمامًا.

الفصل 11

(8)

هذا الفصل من الحكاية قاتم، له أن يُروَى بكلمات هامسة مكتوبة. جاء يوم، أو بالأحرى جاءت ليلة، بصحبة نجمة مساء شريرة، عندما انطلق يهوه أو ملاكه المُدمِّر وضرب أطفال مصر بالطاعون العاشر والأخير، أي أنه ضربَ جزءًا منهم، العنصر المصري بين سكان غوشين وسكان مدينتي بيتوم ورمسيس. وتلك الأكواخ والمنازل التي طليت دعاماتها بعلامات الدم، تجاهلها، أو مرَّ بها فحسب، أو أعفاها من الطاعون.

ماذا فعل بالضبط؟ أمر الموت بالمجيء، موت البكور المصريين، وفي فعلته هذه تقابل أيضًا ربما مع الكثير من الأمنيات السرية في منتصف الطريق، وساعد كثيرين من مواليد بعد البكور على الحصول على حق كانوا ليحرموا منه لولا ذلك الطاعون. على المرء أن يعي الفرق بين يهوه وملاكه المدمِّر. لم يكن يهوه نفسه من انطلق للتدمير، لكن ملاكه المدمِّر، أو بالأحرى فرقة كاملة من الملائكة المدمِّرين، المنتقين بعناية. وإذا رغب المرء في البحث بين الكثيرين عن ظهور شبحي واحد، فإنه يوجد الكثير يدفعه للإشارة إلى شكل معين منتصب، ممتلئ بالشباب، برأس ذي شعر مجعَّد، وتفاحة آدم بارزة، وجبين ذي أثلام واضحة، غدا هو النوع التقليدي للملائكة المدمرين، الذين كانوا دائمًا ما يبتهجون عندما تنتهي المفاوضات التي لا جدوى منها وتبدأ فعال التدمير.

في أثناء مقابلات موسى المستعصية مع فرعون، لم تكن التحضيرات من أجل الأفعال الحاسمة مُهمَلة بالكامل. كان دور موسى فيها محدودًا: لم يفعل سوى أن أرسل زوجته وأبناءه سرًّا إلى مديَن إلى صهره، جيترو. متوقعًا متاعب خطيرة، لم يرغب في أن يحمل عبء رعايتهم. كان يوشع، رغم ذلك، الذي كانت علاقته مع موسى شديدة التشابه بعلاقة ملاك الدمار مع يهوه، قد تصرَّف وفقًا لطبيعته، رغم أنه لم يمتلك الوسائل ولا التقدير اللازم للتحصُّل على ثلاثة آلاف

رفيق يحملون السلاح ومستعدين للحرب تحت قيادته، لكنه اختار على الأقل مجموعة من الرجال، وسلَّحهم، ودرَّبهم، وربَّاهم على الانضباط. كبداية، يمكن إنجاز الكثير بهم.

ما حدث حينها يكتنفه الظلام -الظلام نفسه الذي اكتنف نجمة المساء وليلها الذي كان يفترض أن يكون ليلة عطلة لقبائل العبيد. افترض المصريون أن هذه القبائل كانت تنشد تعويضًا ما عن الاحتفال في الصحراء الذي كانوا قد حرموا منه، وبالتالي تخطط لعقد مهرجان يزينه الصيام والأنوار. فقد استعاروا أوعية الذهب والفضة من جيرانهم المصريين. بدلاً من ذلك حدث أن ظهر ملاك الدمار، أن وقع موت الأطفال البكور في كل المنازل غير المعلَّمة بالدم بحزمة نبتة إشنان داوود.

كان هذا الابتلاء هو ما تسبب في لغط كبير، وكذلك ثورة مفاجئة في الدعاوى القانونية وحقوق الممتلكات، لدرجة أنه في الساعة التالية كان طريق الخروج من أرض مصر ليس فقط مفتوحًا ومنبسطًا لشعب موسى، لكنهم أجبروا في الواقع على المضيّ في الطريق. لم يكن رحيلهم سريعًا ما يكفي لشعب مصر. في الحقيقة، بدا الأمر كأن المواليد التالين للبكور كانوا أقل حماسةً للانتقام من موت هؤلاء الذين خلفوهم في مواضعهم، من رغبتهم في تسريع اختفاء أولئك الذين تسببوا في ظهورهم وتقدمهم.

قال التاريخ كلمته إن الطاعون العاشر نجح أخيرًا في تحطيم غرور فرعون لدرجة عتقه لشعب موسى من العبودية. سريعًا رغم ذلك، أرسلَ في أثر الراحلين فرقة مسلحة لتعقُّبهم لم تجد، على نحو إعجازي، غير الأسى والحزن.

مهما يكن من الأمر، فمن المؤكد أن الخروج قد أخذ صورة النفي والطرد. والعجلة التي حدث بها ظهرت في حقيقة أن أحدًا لم يجد وقتًا لتخمير الخبز من أجل الرحلة. لم يجد الناس مؤنةً إلا في الكعكات غير المختمرة التي صُنعت على عجل. اتخذ موسى من هذه الواقعة احتفالاً تذكاريًّا استمر طوال الزمن. لكن في الجوانب الأخرى، كان الجميع، كبارًا وصغارًا، مستعد بالكامل للرحيل. وفي حين كان الملاك المدمر منطلقًا في غيّه، كانوا هم جالسين بخاصرات مربوطة قرب عرباتهم المحمَّلَة بالكامل، أحذيتهم على أقدامهم، وعصيهم في أيديهم، آخذين معهم أوعية الذهب والفضة التي كانوا قد اقترضوها من أطفال الأرض.

أعزائي، عند الرحيل من مصر كان هناك قتل وكانت هناك سرقة. كانت إرادة موسى الحاسمة أن هذا يجب أن يحدث لمرة أخيرة. كيف يمكن للشعب تحرير نفسه من النجَس دون تقديم قربان أخير لذلك النجَس، دون تلويث أنفسهم بالكامل للمرة الأخيرة؟ الآن وقد نجح موسى في إخراج الجموع غير المتشكِّلة، عشيرة أبيه، إلى العراء، كان يؤمن، برغبة النحَّات في داخله، أن عمل التطهير يمكن أن يبدأ هناك في العراء، في الحرية.

الفصل 12

(9)

كان عدد المهاجرين أقل بكثير مما ترويه الأساطير، لكنهم كانوا كثيرين بما يكفي حتى تصعب السيطرة عليهم، وإرشادهم، وإعالتهم. كانوا حملاً ثقيلاً بما يكفي عليه هو من تحمَّل مسؤولية مصيرهم ونجاتهم تائهين في العراء. اختارت القبائل الطريق الذي اختار نفسه، لسبب وجيه؛ أنهم كانوا يرغبون في تجنُّب التحصينات الحدودية المصرية، التي تبدأ في شمال البحيرات المرة. قادهم الطريق الذي اتخذوه عبر مقاطعة البحيرة المالحة، مقاطعة يصب فيها الجزء الأكبر المائل إلى الغرب لذراعي البحر الأحمر.. هاتان الذراعان تؤطران شبه جزيرة سيناء. كان موسى على دراية بهذه المقاطعة، لأنه في رحلته إلى مديَن وفي عودته من هناك مرَّ بها مرتين. كان يعرف سماتها وخصائصها بأفضل مما يعرف يوشع الشاب، الذي كان يعرفها فقط كخريطة تعلَّمها غيبًا. رأى موسى هذه المياه الضحلة الغريبة التي تمتلئ بعيدان القصب، التي غالبًا ما تشكل اتصالاً مفتوحًا بين البحيرات المرَّة والبحر، والتي في أحيان أخرى وفي ظروف معينة شاذة يمكن اجتيازها كأنها أرض جافة. إذا كانت هناك رياح شرقية قوية، وإذا كان البحر في حالة مد وجزر منخفض، فإن المياه الضحلة تسمح بمرور حر. وجدها الهاربون على هذه الحالة، بفضل مزاج يهوه المواتي حينها.

كان يوشع وكالب هما أول من نشر الأخبار بين الجموع أن موسى، الداعي إلى الرب، كان قد أمسك بعصا فوق المياه، وتسبب في انقسام المياه وبسط الطريق للشعب. من المحتمل جدًّا أن يكون موسى قد فعل هذا حقًّا، وبالتالي ساعد الريح الشرقية بإيماءة مقدسة مستخدمًا اسم يهوه. على أي حال، فإن إيمان الشعب بقائدهم أصبح لازمًا لمنح التأكيد على كل هذا، بعد أن خضعَ هنا بالتحديد لاختباره الحقيقي الأول. فهنا بالتحديد، كانت كتيبة فرعون الجبَّارة، الرجال الراكبون على خيولهم في العربات المرصَّعة بالمناجل، المألوفون جيدًا للشعب، قد لحقت بالهاربين وغدت على بُعد شعرة من وضع نهاية دامية لرحلة الحج إلى الله بكاملها.

تسببت أخبار مجيء الكتيبة، التي أعلنها جنود يوشع في المؤخرة، في رعب هائل ويأس جامح بين الشعب. اشتعل على الفور الندم على اتِّباع "ذلك الرجل موسى"، وبدأت الجموع في الهمهمة والتهامس حول ما سيحدث، ما أثار حزنه ومرارته عند كل صعوبة تالية. انتحبت النساء، وأطلق الرجال السباب وهزوا قبضاتهم على جانبي أجسادهم كما كان موسى يفعل بنفسه عندما يقع فريسةً للاستثارة.

"ألم تكن هناك قبور في مصر"، هكذا كان الحديث"، "يمكننا دخولها بسلام في ساعتنا المعيَّنة إن كنا قد بقينا في الوطن؟" فجأة أصبحت مصر هي "الوطن"، مصر بعينها التي طالما كانت أرض العبودية الأجنبية. "لأنه كان من الأفضل لنا أن نخدم المصريين بدلاً من أن نموت في البريّة".

كان هذا ما اضطر موسى إلى سماعه من ألف حنجرة. بل إن هذه الصيحات قتلت بهجته بالنجاة، التي عندما جاءت لاحقًا كانت بهجة قاهرة. حينها، كان هو "الرجل موسى الذي قادنا وأخرجنا من مصر" - وهي عبارة كانت لتكون أنشودة امتنان لو مضى كل شيء كما ينبغي. فعندما تسوء كل مرة، كانت هذه العبارة تتغير على الفور وتغدو تأنيبًا هامسًا تهديديًّا، تأنيبًا لا يبتعد مطلقًا عن فكرة الرجْم.

حسنًا إذًا، بعد فترة رعب قصيرة مضى كل شيء كما ينبغي على نحو إعجازي ومخزٍ. عبر معجزة الله وقفَ موسى أمام شعبه مستغرقًا في عظمته الشخصية، وأصبح "الرجل موسى الذي قادنا وأخرجنا من مصر" مرةً أخرى لكن بدلالة مختلفة. شقَّ الشعب طريقه عبر المياه الضحلة الجافة، في إثرهم العربات الحربية المصرية بجبروتها.. فجأة، خفتت الرياح، وعاد الفيضان، وقُضيَ الإنسان والخيل مغرغرين في المياه التي ابتلعتهم.

كان الانتصار غير مسبوق. ضربتْ ميريام النبيَّة، شقيقة هارون، على الدف وقادتْ رقصة النساء الدائرية. غنَّتْ قائلة: "الحمد للرب - صنيع عجيب - الجياد والإنسان - طرحهم إلى أعماق المحيط". كانت قد كتبت هذا بنفسها. على المرء أن يتخيَّل هذه الكلمات بمصاحبة ضربات الدف.

كان تأثُّر الشعب عميقًا. تساقطت الكلمات "القدير، المقدَّس، المخيف، الجدير بالثناء، صانع المعجزات" بلا انقطاع من شفاههم، ولم يعد من الواضح إن كانت هذه الكلمات موجهة للإله أم لموسى، مبعوث الرب. فقد غدوا الآن على يقين كامل بأن عصا موسى هي ما سحبت الفيضان المُغرق على هيبة مصر وقوتها. هذا الحلول كان موجودًا أبدًا، في أوقات كهذه عندما ينقطع الشعب عن التهامس ضده، كان يعاني دائمًا في محاولته لمنعهم من التطلع إليه كإله بدلاً من كون داعيًا للإله.

الفصل 13

(10)

في جوهره لم يكن الأمر مضحكًا أو هزليًّا، فما بدأ موسى في اقتناصه من هؤلاء الأناس البائسين تجاوز ما هو متوقَّع بشريًّا، بل بالكاد يمكنه أن ينبثق من عقل الفانين. وقفوا فاغرين أفواههم عند سماعهم ذلك، وعلى الفور منعَ ميريام من رقصة الانتصار وكل الاحتفالات الأخرى ابتهاجًا بتدمير المصريين. أعلن قائلاً: أوشكت الجيوش السماوية ليهوه على الانضمام إلى أغنية النصر، لكن الإله المقدس زجرهم وأبعدهم. "كيف يكون ذلك! أن تغرق مخلوقاتي في البحر، ثم ترغبون في الغناء؟" هذا الإعلان القصير والمفاجئ نشره موسى بين الشعب، ثم أضاف، "لا تبتهج بسقوط عدوك، ولا تجعل قلبك يفرح بمحنته". كانت هذه المرة الأولى التي يخاطب فيها الجمع بكامله، اثني عشر ألف فرد تقريبًا فيهم ثلاثة آلاف قادرون على حمل السلاح، بكلمة "أنتَ" التبجيلية. كان شكلاً خطابيًّا احتواهم بالكامل داخله وفي الوقت نفسه ميَّز كل فرد، رجل وامرأة، عجوز وطفل، مشيرًا بإصبع إلى صدر كل فرد منهم.

"لا تنطق بصرخة الفرح بسقوط عدوك". كان هذا أمرًا غير طبيعي إلى أقصى درجة! لكن من الواضح أن هذا الشذوذ كان يرتبط على نحو ما بعدم إمكانية رؤية إله موسى، الذي كان يرغب في أن يكون إلههم هم أيضًا. بدأ محبّو التفكير من بين الجموع داكنة البشرة ببطء شديد في استيعاب ما يعنيه أن يتحالفوا مع إله غير منظور، وما هي المسائل غير المريحة والملحّة التي عليهم أن يتوقعوها.

أصبح الشعب الآن في أرض سيناء، في صحراء شور، منطقة بغيضة تؤدي فور أن تخلِّفها وراءك إلى منطقة أخرى مثيرة للنحيب، صحراء باران. لماذا كان لهذه الصحارى أسماء مختلفة هو أمر لا يمكن تفسيره. كانت ملتصقة بعضها ببعض على نحو مجدب، وكلتاهما متشابهتان للغاية، أي حجريتان، بلا مياه، وبلا ثمار - مجرد سهول منبسطة لعينة، تتناثر فيها على مسافات شاسعة التلال الميتة، تمتد لمسيرة ثلاثة أو أربعة أو خمسة أيام. كان موسى محظوظًا

بأن نجح في تحصين سمعته عبر التأثير فيهم بالحوادث الخارقة للطبيعة التي وقعت في المياه الضحلة، لأنه قريبًا بما يكفي أصبح ثانيةً "ذلك الرجل موسى الذي قادنا وأخرجنا من مصر"، بما يعني "إلى المحنة". وصلت إلى أذنيه همهمات عالية. بعد ثلاثة أيام نفد الماء الذي كانوا قد أخذوه معهم. آلاف العطشى، الشمس التي لا تحتمل فوق رؤوسهم، وتحت أقدامهم الوحشة العقيم للصحراء، سواء كانت صحراء شور أو صحراء باران التي وصلوا إليها لتوّهم.

"ماذا سنشرب؟" صاحوا بصوت عالٍ، بلا اعتبار للقائد، الذي كان يعاني لأنه المسؤول عن ذلك. تمنَّى سعادة أنه وحده لا يجد ما يشربه، أنه وحده لن يجد ما يشربه أبدًا، إذا كان عليه أن يسمع باستمرار الشكوى، "لماذا أخرجتنا من مصر؟" أن يكابد وحده هو عذاب لا يقارَن بمحاكمته لكونه المسؤول عن معاناة تلك الجموع. كان موسى رجلاً ممتحَنًا، وظل كذلك طوال حياته، ممتحَنًا أكثر من كل الناس الآخرين على الأرض.

وبسرعة كبيرة لم يعد هناك شيء لأكله، فإلى متى يمكن للخبز المسطّح الذي كانوا قد أخذوه معهم أن يستمر؟ "ماذا سنأكل؟" الآن ارتفعت هذه الصيحة، مع دموع وسباب، وعانى موسى من وطأة ساعات طويلة وحيدًا مع الله. اشتكى الظلم الذي حلَّ بأن وضع الله حمل الشعب بكامله على خادم واحد فقط، على موسى.

"هل حبَلتُ بكل هؤلاء الناس ثم أنجبتهم"، سأل، "حتى يحق لك أن تقول لي، (احملهم بين ذراعيك)؟ أين يمكن لي أن أجد الغذاء لأمنحه لهم جميعًا؟ يصيحون أمامي ويتحدثون، (امنحنا لحمًا يمكننا أكله!) وحيدًا لا يمكنني تحمل عبء كل هذا العدد؛ ثقيل جدًّا على كتفيَّ. وإذا أمرتني بهذا، فمن الأفضل أن تخنقني حتى الموت لكيلا أشهد محنتهم ومحنتي".

لم يتركه يهوه مهزومًا بالكامل. في اليوم الخامس لمحَوا على هضبة مرتفعة ينبوعًا تحيطه الأشجار، كان مؤشرًا عرضًا على الخريطة التي كان يوشع يحملها في رأسه باسم "ينبوع مَارَّةَ". لسوء حظهم، كان طعم المياه كريهًا، بسبب من إضافات معينة ضارَّة. تسبب هذا في خيبة أمل مريرة وهمهمات مزمجرة بعيدة. رغم ذلك، اخترع موسى شيئًا ما بحكم الضرورة، أدخل ما يشبه جهاز ترشيح لمنع دخول الإضافات الكريهة، إن لم يكن بالكامل، فنسبة كبيرة على الأقل. بذلك، نجح في تحقيق معجزة النبع، التي حوَّلت الاتهامات إلى ترانيم شكر وفعلت

الكثير لتدعيم سمعته. سرعان ما اتخذت العبارة "هو الذي قادنا وأخرجنا من مصر" وهجًا ورديًّا مرة أخرى.

حدثت معجزة أخرى أيضًا في مسألة الغذاء، معجزة تسببت في بداية الأمر في اندهاش مبتهج. بدا الأمر كأن المساحات الهائلة من صحراء بارات أصبحت مغطاة بنبات الأشنة الصالح للأكل. هذا "الأشنة- المنّ" كان وبرًا حلوًا، مستديرًا وصغيرًا، يشبه بذور الكزبرة وصمغ الراتنج، وذا قابلية عالية للتلف.. إذا لم يأكله المرء على الفور، يبدأ في إطلاق رائحة كريهة. لكنه بخلاف ذلك يمكن اعتباره طعامًا مقبولاً للغاية في الحالات الطارئة، بعد هرسه وسحقه وتحضيره كأنه كعكة دردار. اعتقد البعض أن مذاقه يشبه تقريبًا لفائف بالعسل، في حين ذكَّر آخرين بالكعكات الزيتية.

كان هذا الحكم الأول لصالح موسى، لكنه لم يستمر كثيرًا.. بعد بضعة أيام فحسب بدأ الشعب في الشعور بالإنهاك من هذا المنّ، والتعب من خداع جوعهم مؤقتًا به.. لأنه كان غذاءهم الوحيد، أصابهم السقم بسببه بعد أن شعروا بالغثيان من تناوله، وبدؤوا في الشكوى.. "نتذكَّر السمك الذي كنا نحصل عليه في مصر بلا مقابل، والقرْع، والخيار، والكرّاث، والبصل، والثوم. الآن غدت أرواحنا مرهقة، فأعيننا لا ترى شيئًا إلا المنّ". هذا، إضافة بالطبع إلى السؤال، "لماذا أخرجتنا من مصر؟" كان على موسى أن يسمعه متألمًا. كان سؤاله إلى الله، "ماذا أفعل بهذا الشعب؟ لم يعودوا يرغبون في المنّ. سترى، قريبًا سيرجمونني".

الفصل 14

(11)

رغم ذلك، من قَدَرٍ كهذا كان يتمتع بحماية معقولة من جانب يوشع بن نون، وسنّه الفتية، والحرّاس الأقوياء الذين كان قد استدعاهم في غوشين وبدؤوا في تطويق المخلِّص فور أن ارتفعت الهمهمات التهديدية بين الحشود. في تلك الأثناء كانت هذه الحراسة المسلحة صغيرة وتتألف فقط من رجال صغار، مع كالب كقائمقام. لكن يوشع كان ينتظر الفرصة المناسبة لتنصيب نفسه قائدًا ورئيسًا للمعركة، وأن يضم في قوة عسكرية منظمة تحت قيادته كل القادرين على حمل السلاح، الثلاثة آلاف جميعهم. كان يعلم أن هذه الفرصة آتية حتمًا.

كان موسى يدين بالكثير للشاب الذي كان قد عمَّده باسم الله. دونه كان ليضيع في مناسبات كثيرة، لأنه هو نفسه كان رجلاً روحانيًا، وفحولته، حتى إن كانت متينة وقوية، حتى إن كان رسغه عريضًا كرسغ قاطع أحجار، كانت فحولة روحانية، فحولة متحوِّلة إلى الداخل، يغذّيها ويشعلها الله، غير واعية بالحوادث الخارجية، تهتم فقط بالمقدَّس. بشكل من أشكال الرعونة، التي تتناقض على نحو عجيب مع تفكيره التأملي عندما يغطي فمه ولحيته بيديه، فإن كل أفكاره ومساعيه تنحصر فقط في رغبته في الاستحواذ على عشيرة أبيه لنفسه في هذا المعتزل، حتى يمكنه تعليمهم، وأن ينحت على صورة الله الكتلة عديمة الشكل التي يحبها. كان مهتمًّا بعض الشيء -أو بالأحرى غير مهتم على الإطلاق - بمخاطر الحرية، بصعوبات الصحراء، وبمسألة كيف يمكن للمرء أن يقود بأمان الجموع للخروج من الصحراء. لم يعرف حتى على وجه الدقة إلى أي بقعة يجب عليه إرشاد الشعب. أي أنه بالكاد نجح في إعداد نفسه لقيادة حقيقية. لذلك كانت سعادته مضاعفة بوجود يوشع إلى جانبه، الذي أُعجبَ بدوره بالفحولة الروحانية لرئيسه، ووضع فحولته هو المباشرة، الواقعية، المفيدة تحت تصرف موسى بلا شرط.

بفضله نجحا في التخطيط للتقدم عبر البريّة ولم يضلا طريقهما أو يهلكا. نجحَ يوشع في تحديد اتجاهات المسيرات وفقًا للنجوم، وحساب المسافات التي على المسيرات أن تقطعها، وترتيبها

ليصلوا إلى مواضع المياه على فترات زمنية قبل أن يقتلهم العطش، أو أحيانًا عندما يوشك العطش على قتلهم. كان هو من اكتشف أن نبات الأشنة كان صالحًا للأكل، أي أنه انصرف إلى الاعتناء بسمعة قائده ورئيسه. شغله الأمر كثيرًا عندما تحولت العبارة "هو من قادنا وأخرجنا من مصر" إلى همسات مكبوتة، وسريعًا ما حوَّلها إلى معنى إطرائي. استبقى الهدف بوضوح في عقله، وإليه قاد الجموع بمساعدة النجوم وبالاتفاق مع موسى، متخذًا أقصر الطرق. كلاهما كان متفقًا على ضرورة وجود هدف مؤقت أوَّلي، حتى إن كان مجرد مأوى مؤقت، فسيكون حينها مسكنًا يمكن للمرء العيش فيه واكتساب بعض الوقت. يتطلب الأمر وقتًا كبيرًا، من ناحية (في نظر يوشع) حتى يمكن للشعب التكاثر وتزويده مع تقدمه في العمر بعدد أكبر من المحاربين، ومن ناحية أخرى (في نظر موسى) حتى يتمكن موسى من قيادة الجموع نحو الله وصقلهم إلى الشكل الذي يحقق القداسة والطهارة والنقاء. لهذا تشتاق روحه ويشتاق رسغاه.

كان الهدف هو واحة قادش. تمامًا كما تتاخم صحراء شور صحراء باران، فإن صحراء سِن تجاور باران من ناحية الجنوب. لكن ليس من جميع الجوانب وليس عن قرب. في مكان في المنتصف تقع واحة قادش. كانت هذه الواحة بمثابة مرج لا يقدر بثمن، انتعاش أخضر وسط أرض خراب بلا مياه، مع ثلاثة ينابيع قوية وعدد كبير من الينابيع الصغيرة، باتساع مسيرة يوم طولاً ونصف يوم عرضًا، تغطيها مراعٍ متجددة وأرض قابلة للزراعة، مشهد فاتن ثري بالحيوانات والفواكه، وكبيرة بما يكفي لإيواء وإطعام جمع كجمعهم.

كان يوشع يعرف بشأن هذه البقعة الجذابة: كانت معلَّمَة بدقة على الخريطة التي يحملها في رأسه. موسى أيضًا كان قد سمع بشيء ما بشأنها. لكن يوشع هو من سعى في الحقيقة لاختيار قادش كوجهة لهم. إنها فرصته - تقبع هناك. وغني عن القول أن لؤلؤةً كواحة قادش لم تكن بلا مالك. كانت الواحة من ضمن ممتلكات راسخة. حسنًا، ربما ليست راسخة تمامًا كما كان يأمل يوشع. للاستحواذ عليها، على المرء أن يحارب هؤلاء الذين يملكونها، وكان اسمهم العماليق.

كان جزءًا من قبيلة العماليق قد أبقى على قادش محتلَّة وبالتأكيد مستعد للدفاع عنها. أوضح يوشع لموسى أن هذا يعني الحرب، أن معركةً بين يهوه والعماليق كانت أمرًا محتومًا، حتى إن نشأت عنها عداوة أبدية يتوارثها جيل بعد جيل. الواحة التي عليهم أن يستحوذوا عليها كانت موضعهم المقدَّر سلفًا من أجل التكاثر والتكريس.

أبدى موسى تحفظاته. في رأيه كان أحد آثار الإله غير المنظور أن على المرء ألا يشتهي منزل جاره. قال الكثير من هذا للشاب، لكن يوشع أجابه: لكن قادش ليست بالتأكيد منزلاً للعماليق. كان يعرف طريقه، ليس في المكان فحسب لكن في الأزمنة الماضية كذلك، ويعرف أنه منذ زمن طويل -رغم أنه لم يستطِع أن يحدد بدقة متى كان ذلك - كانت قادش مسكونة من قِبل الشعب العبراني، وأنهم جُرِّدوا من ممتلكاتهم من قِبل شعب العماليق. أضحت قادش من ممتلكات العماليق عبر السرقة - وبالتالي يجوز للمرء أن يسرق السارق.

تشكك موسى في ذلك، لكن كانت لديه أسبابه الخاصة للاعتقاد أن قادش كانت من ممتلكات يهوه بالفعل، وأنها ينبغي أن تنتمي إلى هؤلاء المتحالفين معه، فالمكان يحمل اسم قادش، الذي يعني "الحرم المقدس"، ليس فقط بسبب سحره الطبيعي، لكن أيضًا لأنه بمعنى معيَّن كان حرمًا ليهوه المديَني، الذي كان موسى قد اعترف به كإله الآباء. غير بعيدٍ عنها، في اتجاه الشرق وفي اتجاه مملكة إدوم، يقع جبل حوريب، الذي كان موسى قد زاره من مديَن وعلى منحدره ظهر له الإله في الأجمة المحترقة. حوريب الجبل هو موضع سكن يهوه - على الأقل كان واحدًا من كثير منها، فموضع سكنه الأصلي كان جبل سيناء في أثناء الساعات التي تمتد نحو منتصف النهار. لذلك كان هناك اتصال وثيق بين جبل سيناء وجبل حوريب - أي أن كليهما كانا موضعين لمَقام يهوه. يمكنك بالطبع تسمية أحدهما باسم الآخر، يمكنك أن تدعو حوريب باسم سيناء وأن تدعو قادش باسمه الفعلي لأنه، وإن كان ليس تمامًا، يستقر عند قاعدة الجبل المقدس.

بالتالي وافقَ موسى على مخطط يوشع، وسمح له بعمل تحضيراته للحرب مع العماليق.

الفصل 15

(12)

نشبت المعركة - وهي حقيقة تاريخية. كانت معركة دموية، متأرجحة بين الطرفين. لكن إسرائيل انتصرت في النهاية. كان موسى قد منح هذا الاسم "إسرائيل"، الذي يعني "الله يصنع الحروب"، لشعبه قبل المعركة، من أجل تدعيمهم. فسَّر لهم الأمر قائلاً إنه كان اسمًا قديمًا للغاية سقط في غياهب النسيان. وكان يعقوب، أبوه الأصلي، هو أول من اكتسبه، ثم أطلقه على قبيلته. الآن استفاد منه شعب موسى بالفعل. القبيلة التي ارتبطت في ما بينها على نحو متداعٍ فحسب في الماضي، الآن وقد اتخذت اسم إسرائيل، أصبحت تحارب متحدةً تحت راية هذا الاسم المحصَّن. حاربوا في مجموعات مصطفة في المعركة يقودهم يوشع، الشاب الجدير بالحرب، وكالب، قائممقامه.

لم تراود شعب العماليق أي أوهام بشأن نوايا ومعنى اقتراب المجوّلين الهائمين. في كل الأزمنة كان لهذا الاقتراب معنى واحد لا غير. دون انتظار الهجوم على الواحة، اندفعوا في جماعات نافرة إلى الصحراء، أكبر عددًا من إسرائيل، وأفضل تسليحًا. وسط دوامات الغبار، والفوضى وصيحات القتال، بدأت المعركة.

كانت معركة غير متكافئة، غير متكافئة أيضًا لأن شعب يوشع كان مرهقًا بفعل العطش ولم يتناول أي طعام سوى المنّ لأيام كثيرة. لكنه، من الناحية الأخرى، كان لديهم يوشع، الشاب ذو الرؤية الواضحة، الذي قاد حركاتهم، ولديهم موسى، رجل الله.

في بداية الاشتباك انسحب موسى، مع هارون، شقيقه بالتبني، وميريام، النبيّة، إلى تلٍّ يمكنهم منه رؤية ميدان القتال. فرغم فحولته، لم يكن من واجبه أن ينخرط في المعركة بنفسه، بل كان واجبه كواجب الكاهن، بعد أن وافق الجميع بلا تردد على أن هذا هو واجبه الوحيد. بذراعين

مرفوعين نادى الإله، وأطلق كلمات غاضبة، كلمات مثل "ارتفع، يهوه، واظهر للجموع الحاشدة، لآلاف الإسرائيليين، حتى يتشتت أعداؤك ويهرب من يحمل لك بغضًا قبل رؤيتك".

لكنهم لم يهربوا ولم يتشتتوا. وحتى إن حدث، فقد هربوا وتشتتوا فقط في بضعة مواضع ومؤقتًا فحسب. ورغم أن إسرائيل قد أصابتها الشراسة بفعل العطش والتخمة من تناول المنّ، فإن العماليق نجحوا في التخلص من مزيد من "الجموع الحاشدة". وبعد تمنّع قصير، اندفعوا وضغطوا مرة بعد مرة، واقتربوا أحيانًا بخطورة من تلّ القيادة. كان من الواضح أن إسرائيل تنتصر ما دام موسى رافعًا يديه في صلاته تجاه السماء.

لكن فور أن يدع ذراعيه تهبطان، يصبح العماليق هم المنتصرون. لأنه لا يستطيع رفع ذراعيه باستمرار عبر قوته فحسب، كان هارون وميريام يدعمانه من تحت إبطيه، بل حتى يرفعان ذراعيه بنفسيهما حتى تظلا مرفوعتين. ما يعنيه هذا يمكن للمرء قياسه عبر حقيقة أن المعركة استمرت من الصباح إلى المساء، وطوال هذا الوقت كان على موسى الإبقاء على وضعيته المؤلمة، وبالنظر إلى صعوبة الواجب الموكل إلى الفحولة الروحانية، عاليًا هناك على تلّ الصلوات - فمن الواضح أنه واجب يتجاوز كثيرًا صعوبة المهام الموكلة إلى المتصارعين في الأسفل الغارقين في العرق والفوضى.

كذلك لم يكن قادرًا على إنجاز واجبه طوال اليوم. فأحيانًا، ولبرهة فحسب، كان مساعداه يضطران إلى إنزال ذراعي السيد، وعلى الفور يتسبب هذا في كثير من الدم والمحَن بين محاربي يهوه. ثم يُرفع الذراعان ثانيةً، فيكتسب منْ في الأسفل شجاعة متجددة. ما ساعدَ أيضًا على توجيه المعركة لمصلحتهم كانت الموهبة الإستراتيجية ليوشع. كان متدرِّب حرب خلَّاقًا، شابًّا بأفكار ورؤية. اخترع مناورات كانت جديدة بالكامل وغير مسبوقة، على الأقل في الصحراء. كان كذلك قائدًا صلبًا بما يكفي لرؤية الضياع المؤقت للأرض بكل هدوء. جمعَ محاربيه الأقوياء، ملائكة التدمير المنتقين بعناية، على الجناح الأيمن للعدو، ثم اندفعوا ضد هذا الجناح بتصميم، ونجحوا في تحييده، ومهاجمته بتكرار يكفي حتى ينتصر إسرائيل في تلك البقعة فقط. لم يكن ذا أهمية أن القوة الرئيسة للعماليق كانت تتمتع بالتفوق ضد صفوف العبرانيين، وتندفع بقوة قدمًا للاستيلاء منهم على مساحات كبيرة من الأرض. لأنه بسبب خلخلة الجناح، نجح يوشع في اختراق مؤخرة قوة العماليق حتى اضطرت الآن إلى الاستدارة نحوه، دون

القدرة على إيقاف القتال ضد القوة الرئيسية لإسرائيل. ومن كان منذ برهة عرضةً للفناء اكتسبَ الآن شجاعةً جديدة. بهذا فقدَ العماليق صوابهم وحلَّ بهم اليأس. "خيانة"، صاحوا، "ضاع كل شيء. لا تأملوا في أي انتصار بعد الآن! يهوه فوقنا، إله للكيد غير المحدود". وبكلمة سر اليأس هذه، تركَ محاربو العماليق سيوفهم أرضًا واستسلموا للهزيمة.

نجح القليل منهم فحسب في الهروب شمالاً نحو شعبهم، حيث وجدوا ملجأً لدى القبيلة الرئيسية. احتلت إسرائيل واحة قادش، التي اكتشفوا أن عبرها يمر نهر عريض متدفق، ثري بأجمة البندق وأشجار الفاكهة، ويمتلئ بالنحل وطيور الغناء، والسمّان والأرانب. وأطفال العماليق الذين تخلَّفوا وراءهم في خيام القرية زادوا من عدد ذريتهم، وغدت زوجات العماليق خادمات وزوجات لإسرائيل.

الفصل 16

(13)

كان موسى، رغم ألم ذراعيه الذي استمر طويلاً بعد ذلك، رجلاً سعيدًا. سنرى قريبًا أنه ظلَّ رجلاً ممتحَنًا بشدة، ممتحَنًا أكثر من أهل الأرض جميعهم. في الوقت الحاضر يمكنه أن ينغمس في سعادته بوضع الأشياء. نجح الخروج والنزوح، وغرقت قوة فرعون المنتقمة في بحر الخيزران، اكتملت رحلة الصحراء على نحو رحيم، وانتصروا في المعركة من أجل قادش بمساعدة يهوه. الآن يقف بكل عظمته أمام عشيرة أبيه، بالتقدير الذي ينبع من نجاحه، بصفته "الرجل موسى الذي قادنا وأخرجنا من مصر". كان في حاجة إلى هذا التقدير حتى يصبح قادرًا على البدء في عمله، عمل التطهير والتشكيل على صورة غير المنظور، عمل الشحذ والصقل وتكوين اللحم والدم، العمل الذي يتوق إليه كثيرًا. كان سعيدًا بعد أن امتلك أخيرًا هذا اللحم والدم خالصين لنفسه بعيدًا في العراء، في الواحة التي تحمل اسم "الحرم المقدَّس". هنا كان محلّ عمله.

أظهرَ لشعبه جبلاً معينًا يستلقي في اتجاه الشرق من قادش وراء الصحراء. كان ذلك جبل حوريب، الذي يمكن أيضًا تسميته بجبل سيناء. كان ثلثاه غارقين في الأجمة الوفيرة، وقمته جرداء، وهناك كان مستقر يهوه. كان هذا منطقيًّا، لأنه جبل فريد، مميز عن الجبال المجاورة بسحابة لا تختفي مطلقًا بل تستلقي كسقف على ذروته. في أثناء النهار تبدو هذه السحابة رمادية اللون، لكنها تتوهج ليلاً. هناك، أخبر الشعب، على المنحدر المشجَّر أسفل القمة الصخرية، كان يهوه قد تحدث إليه من الأجمة الشوكية المحترقة، وكلَّفه بإخراجهم من مصر. أنصتوا إلى الحكاية بخوف وارتعاش. لم يشعروا رغم ذلك بأي إجلال أو تكريس. لكن جميعهم، حتى الملتحين منهم، اهتزوا فوق ركبهم كالجبناء عندما أشار موسى إلى الجبل ذي السحابة الأبدية، وعندما أعلمهم أن هذا هو مستقر الإله الذي انحنى إليهم حتى يكون إلههم الوحيد. وبَّخهم موسى، عبر هز قبضتيه، بسبب سلوكهم الفجّ، وحاول أن يمنحهم شجاعةً أكبر نحو يهوه،

وحميمية أكبر معه، عبر الانتصاب قائمًا بينهم، في قادش نفسها، التي أصبحت ضريحًا على شرف الإله.

لأن يهوه كان يتمتع بحضور متحرِّك، كان هذا دليلاً آخر على احتجابه. فكان يقطن على جبل سيناء، ويقطن على جبل حوريب. وفور أن بدأ الشعب في الإحساس بشعور الوجود في الوطن في معسكر العماليق منحهم موسى مسكنًا هناك أيضًا. كان عبارة عن خيمة مجاورة تمامًا لخيمته، دعاها بخيمة الاجتماع أو التجمُّع، وكذلك بخيمة الهيكل الطوَّاف. هناك أسكن الأشياء المقدسة التي ستساعده في طقوس عبادة غير المنظور. معظم هذا الأشياء يرجع في الزمن إلى عقيدة عبادة يهوه المديَني كما يتذكرها. أولاً، صندوق ما محمول على أعمدة، عليه، بحسب تفسير موسى (فقد كان هو الرجل الذي يعرف مسائل كهذه)، يستقر عرش الألوهية غير المنظورة. كان بإمكانهم جلب هذا الصندوق معهم إلى الميدان وحمله معهم إلى المعركة، في حالة اقترب العماليق وحاولوا الانتقام. إلى جانب هذا الصندوق احتفظ بعصا نحاسية ذات رأس على شكل أفعى، تُدعى أيضًا باسم "الأفعى النحاسية". تحيي هذه العصا ذكرى خدعة هارون ذات النوايا الحسنة أمام فرعون، لكن مع دلالة إضافية أنها أيضًا العصا التي كان موسى قد رفعها فوق بحر الخيزران لشق المياه. استبقى في الخيمة صندوقًا لحمل (إفود 6)(Ephod) المصنوع من قماش الكتان، منها يسحب العرَّاف نتائج القرعة. كانت هذه "نعم" أو "لا"، و"خطأ"، و"جيِّد" و"سيئ"، وأحكام "الأوريم والتميم" (الأنوار والكمالات) التي تمثِّل قرارات يهوه المباشرة في أوقات النزاعات الشديدة التي لا يمكن لرجل بمفرده حلَّها.

(6) وشاح أثري في الثقافة الإسرائيلية القديمة، كان يستعمل في الممارسات والطقوس التنبئية – (المترجم)

في معظم الأحوال كان موسى يصدر الأحكام بنفسه نيابةً عن يهوه، في كل أنواع النزاعات والخلافات التي كانت تنشأ بين الشعب. حقيقة الأمر أن أول ما فعله في قادش كان إقامة محكمة هناك، وفي أيام معينة، يصدر الأحكام ويسوِّي الخلافات. هناك، حيث يبقبق النبع الأقوى، النبع الذي أصبح يُسمَّى مي-ميريباه، بما يعني "مياه القانون"، هناك نطق بأحكام وسمحَ للحكم المقدس بالتدفق تمامًا كما تتدفق المياه من الأرض. إذا نظرَ المرء إلى حقيقة أن هناك اثني عشر ألف

وخمسمئة روح تتطلع إليه بمفرده بحثًا عن العدالة، فإنه يمكن تخيُّل كم كان موسى مرهقًا على نحو موجع.

تزايدت أكثر وأكثر أعداد الباحثين منهم عن حقوقهم مندفعين إلى كرسيّه بجوار النبع، نظرًا إلى أن فكرة الحق كانت شيئًا جديدًا بالكليّة على هذه الأرواح الضائعة والمنبوذة. حتى الآن بالكاد كانوا يعرفون بوجود شيء كهذا. الآن عرفوا أولاً أن الحق كان مرتبطًا مباشرةً باحتجاب وقداسة الله فسعوا للوقوف تحت حمايته، ثانيًا أن مفهوم الصواب يشتمل أيضًا على مفهوم الخطأ. كانت الجموع عاجزة عن فهم هذا لفترة طويلة. اعتقدوا أن كل شخص هناك، حيث يتم توزيع الحقوق، كان على صواب بالبداهة. في البداية لم يتمكنوا ولم يريدوا تصديق أن الفرد يمكنه التحصُّل على حقِّه عبر حقيقة الحكم أنه على خطأ، وأن عليه أن يتسلل خفيةً بوجه تعلوه علامات الأسى. رجل كهذا يندم حينها أنه لم يسوِّ المسألة مع غريمه كما اعتاد تسويتها في الأزمنة الفائتة، أي بالحجارة في قبضتيه، حتى إن كانت المسألة ستتكشف حينها عن نتيجة مختلفة. بصعوبة تعلَّم ذلك الرجل من موسى أن فعلاً كهذا كان مهينًا لاحتجاب الله، وأن أحدًا عليه ألا يتسلل خفيةً بوجه يعلوه الأسى إذا أعلن الحق أنه مخطئ، فالحق بديع ومجلل دائمًا في احتجابه المقدس، سواء أقال "نعم" أم "لا" لأي رجل.

لذلك كان على موسى ليس فقط إصدار الأحكام ولكن أيضًا تعليمها، وكثيرًا ما حاول. كان قد درس القانون في أكاديمية طيبة، وتعلَّم لفائف القانون المصري وقانون حمورابي، ملك نهر الفرات. ساعدته هذه المعرفة على اتخاذ القرار في قضايا كثيرة. مثلاً: إذا اخترق ثور بقرنه رجلاً أو امرأةً وأدماه حتى الموت، فإنه يجب رجم الثور وتحريم أكل لحمه. لكن مالك الثور يُعلَن بريئًا ما لم يكن يعلم أن الثور كان معتادًا في ما سبق دفع قرونه ولم يحجزه في حظيرته، حينها تصبح حياته مستباحة، ما لم يتمكن من افتداء نفسه بثلاثين شيكل من الفضة. أو إذا حفرَ أحدهم حفرةً ولم يضع غطاءً مناسبًا عليها، ثم يسقط فيها ثور أو حمار، فإن مالك تلك الحفرة عليه أن يعوِّض الرجل الآخر بالمال عن خسارته، لكن الجيفة تؤول للرجل الأول. أو أيًّا ما قد يحدث في مسائل العنف، أو سوء معاملة العبيد، أو السرقة والنهب، أو إتلاف المحاصيل، أو إشعال الحرائق، أو خيانة الثقة. في كل هذه القضايا ومئات غيرها أصدر موسى أحكامًا، معتمدًا على قانون حمورابي، ومقررًا ما هو الصواب وما هو الخطأ. لكن القضايا كانت كثيرة جدًّا

على قاضٍ واحد، ومقعده قرب النبع اجتاحه الشاكون. حتى إن نجح السيد في التحقيق في القضايا الكثيرة بنصف ضمير، فلم يكن أبدًا لينتهي منها مضطرًا إلى تأجيل الكثير منها. مشكلات جديدة تظهر أبدًا، وكما نذكر فقد كان أكثر الناس امتحانًا.

الفصل 17

(14)

لذلك، بضربة من الحظ الطيب العظيم كان أن جاء صهره، جيترو، من مديَن لزيارته في قادش وتقديم النصيحة الطيبة له في تلك المسائل، وهي نصيحة لم يكن موسى، شديد اليقظة والضمير، ليجدها بمفرده أبدًا. بعد مجيئه إلى الواحة، كان موسى قد أرسل رسولاً إلى صهره في مديَن من أجل العودة بزوجته زيبوراه وابنيه، الذين كان قد عهدَ بهم إلى أمان خيمة جيترو في أثناء الاضطرابات المصرية، لكن جيترو تجاوز توقعات موسى وحضر بشخصه لتسليمه زوجته وابنيه، لاحتضان موسى، للتطلع من حوله، ولكي يسمع منه كيف وقعت حوادث كل شيء.

كان جيترو شيخًا بدينًا ذا تعبيرات حزينة على وجهه، وإيماءات بارعة وهادئة، رجلاً خبرَ العالم، فارسًا لشعب متحضر، دؤوبًا ذا تجربة. بعد استقباله بحفاوة، استقر في كوخ موسى، وهناك، ليس بلا اندهاش كبير، علمَ كيف أن واحدًا من آلهته نفسها - ذلك الذي بلا صورة، وهو ما أثار استغرابه - قد فعل لموسى وشعبه أمورًا طيبة استثنائية، وأنه، كما كان يعلم من قبل، قد أنقذهم من سلطان مصر.

"حسنًا، من كان يتصور هذا؟" قال لموسى. "من الواضح أن هذا الإله أعظم مما تخيلنا، وما تخبرني به الآن يصيبني بالخوف أننا أهملناه وتجاهلناه كثيرًا. سأهتم بهذا الأمر وسأتأكد من أننا سنمنحه تشريفًا أكبر في المستقبل".

في اليوم التالي أُمرَ بتقديم القرابين على مرأى من الشعب. نادرًا ما كان موسى معتادًا ترتيب مسائل كهذا، فقد كان ذا نفع ضئيل في عادة شائعة بين جميع شعوب العالم. "لا تمثل القرابين أهمية لغير المنظور"، قال لهم موسى، "ليست التقدمات ما أنشده"، يقول يهوه "لكن أن تنصتوا إلى صوتي، وإلى صوت خادمي، موسى، وحينها سأكون إلهكم وستكونون شعبي". رغم ذلك، في تلك المناسبة أقاموا الذبائح وأحرقوا القرابين على شرف يهوه، وكذلك للاحتفال بمقدم جيترو.

وأعادوا ذلك في اليوم التالي، في الصباح الباكر. أخذَ موسى صهره إلى "نبع القانون"، حتى يشهد جلسات المحكمة ويرى كيف يجلس موسى ويحكم بين الناس، الذين كانوا يقفون من حوله من مطلع الصباح حتى المساء، بلا نهاية تلوح في الأفق، ولا قدرة من جانب موسى على الانتهاء من الحكم بينهم.

"الآن، اسمح لي أن أسألك عن شيء، يا صهري المبجل"، قال له الضيف عندما سار مع موسى إلى المنزل، بعد انقضاء الجلسة. "لماذا تُبلي نفسك بهذا الشكل؟ هناك تجلس وحيدًا وكل هؤلاء الناس يقفون من حولك من مطلع الصباح حتى المساء. لماذا تفعل ذلك؟"

"أنا مضطر"، أجابه موسى. "لقد جاء إليَّ الناس حتى أحكم لهم بالحق وأريهم حق الله وقوانينه".

"لكن، صديقي العزيز، كيف يمكن أن تكون قليل الحيلة هكذا؟" قال له جيترو. "هل هذه هي الطريقة المثلى للحكم؟ وهل يصح أن يُجهد الحاكم نفسه حتى النخاع لأنه يفعل كل شيء بنفسه؟ من العار أن تقتل نفسك هكذا حتى صرت بالكاد قادرًا على رفع رأسك. بل إنك ستفقد صوتك بكل هذا الصياح في المحاكمات. ولا الناس أقل منك إرهاقًا وكدًّا. ليس هذا طريق البداية. مع انقضاء الزمن ستصبح عاجزًا عن إجراء كل المسائل بنفسك، وليس هذا بالضروري.. اسمع إلى صوتي، إذا تصرفت كمبعوث لشعبك أمام الله، وبشخصك جلبت أمامه أهم القضايا فحسب، تلك القضايا التي تخص الجميع، فهذا كل ما ينتظر منك فعله على نحو معقول. أما بالنسبة إلى القضايا الأخرى - حسنًا، تطلع من حولك"، قال له بإيماءاته السلسة، "تطلع بين هؤلاء الغوغاء وابحث عن رجال محترمين، رجال ذوي مكانة ما، ونصِّبهم قضاةً على الشعب. دع واحدًا من هؤلاء الرجال يحكم مجموعة من ألف، وآخر من مئة، حتى تصل إلى خمسين وحتى عشرة، ودعهم جميعًا يحكمون وفقًا للقانون والشرائع التي وضعتها. فقط إذا كان الأمر مسألة جسيمة يمكن استدعاؤك، أما المسائل الصغير فتمكنهم تسويتها بأنفسهم، لن تحتاج حتى إلى معرفة وجودها. هكذا ننجز الأمر، وكهذا يصبح أقل وطأةً عليك. لم أكن لأقدر على المجيء وزيارتك اليوم، إذا كان لي أن أهتم بمعرفة كل شيء يحدث من حولي أو إذا أثقلت كاهلي كما تفعل".

"لكن القضاة سيقبلون العطايا والهبات"، أجاب موسى بقلب مُثقل "وسيعلنون الكافرين بالإله على صواب، فالعطايا والهبات تعمي من له عين وتجبّ قضية العدل".

"أعرف هذا"، أجاب جيترو، "أعرفه تمام المعرفة. لكن على المرء أن يغلق عينيه عن ذلك، قليلاً فحسب. أيًّا كان النظام الذي يسود، والقانون الذي يُنطق، والأحكام التي تصدر، قد يصبح القضاة متورطين قليلاً في العطايا، لكن هل يهم هذا كثيرًا؟ انظر، هؤلاء من يقبلون الهبات، هم مجرد أناس عاديين. لكن الشعب نفسه مجرد أناس عاديين، لذلك يصبح في مقدرتهم فهم العادي، والعادي عمومًا مريح لجموع الناس. وإذا وقع على رجل ظلم لأن قاضيًا من العشرة قبل الرشاوى من هذا العدو الكافر، إذًا فدع ذلك الرجل يأخذ مسار القانون العادي. دعه يلتمس عطف القاضي الذي يحكم على الخمسين ثم القاضي الذي يحكم على المئة، وأخيرًا إلى القاضي الذي يحكم على الألف، ذلك الذي يحصد معظم العطايا وبالتالي الرؤية الأوضح. سيجد رجلنا حقوقه لدى هذا القاضي الأخير، هذا إن لم يسأم المسألة بكاملها طوال هذا الوقت".

هكذا ألقى جيترو حديثه هذا بإيماءات هادئة، إيماءات لها أن تجعل الحياة أخف وطأةً فقط إذا رآها المرء. هكذا أظهر أنه الكاهن الملك لشعب الصحراء المتحضِّر. بقلب مُثقل أنصت موسى وأومأ برأسه. كانت روحه كالروح المتراخية لرجل روحاني يشعر بالوحدة، رجل يومئ برأسه متأملاً في حذاقة وبراعة العالم من حوله، ويفهم أن العالم قد يكون على حق رغم ذلك. عملَ بمشورة صهره الحاذق - كانت مسألة ضرورية للغاية. عيَّن قضاةً علمانيين سمحوا، وفقًا لشرائع، بتدفق الأحكام بجوار النبع العظيم وبجوار النبع الصغير. أصدروا الأحكام في القضايا اليومية (كسقوط حمار في حفرة مثلاً)، فقط القضايا الكبرى كانت من اختصاص موسى، كاهن الله. والمسائل الأعظم كانت تقرر على يد العرَّافين المقدَّسين.

لم تعد يدا موسى مغلولتين بالمسائل التافهة اليومية، غدت يداه طليقتين من أجل العمل الأكبر، أي أعمال النحت التي من أجلها انتصر يوشع، الشاب الممتلئ بالإستراتيجية، وفاز بمحلّ العمل، واحة قادش. يقينًا كانت شريعة الصواب والخطأ مثالاً هامًّا على التأثيرات الكامنة في الإله غير المنظور. مع ذلك كانت مجرد مثال واحد. ما زال هناك الكثير من الأعمال لإنجازه. جهد شاق وطويل ما زال في الأفق، جهد ينبغي إنجازه عبر كثير من الغضب والصبر قبل أن تتشكل الجموع الغاضبة إلى شعب يصبح في النهاية أكثر من مجرد مجتمع عادي، وحينها لن يجد راحته في العادي، لكن في الاستثنائي، شعب منسلخ ونصب تذكاري فريد مشيَّد على شرف غير المنظور ومُهدى إليه.

الفصل 18

(15)

سرعان ما علمَ الشعب ما يعنيه أن يسقط بين يدي عامل حِرَفيّ يملؤه الصبر والغضب، وقد نصَّب نفسه مسؤولاً أمام الإله غير المنظور. بدؤوا في إدراك أن الاقتراح غير المعقول بالتخلي عن صيحة الانتصار على الأعداء وإغراقهم في البحر لم يكن سوى البداية، وإن كانت بداية تنذر بالشؤم، تدعي الأهمية، وتستقر عميقًا في مملكة القداسة والنقاء. كانت بداية افترضت مسبقًا وجود فهم معين، وأن الشعب عليه أن يكتسب ذلك الفهم قبل أن يتمكنوا من رؤية أي معقولية في الأمر اللامعقول الذي أصدره موسى لهم.

ما كانَ عليه الرعاع حقًّا، إلى أي درجة كانت سذاجتهم في الجوهر واللحم والدم، مفتقرين لأقل تصور أولي للنقاء والقداسة، كيف اضطر موسى إلى البداية وتعليمهم البدايات، هذا ما يمكن استنباطه من المبادئ البسيطة التي بدأ من خلالها في العمل والنحت والتحطيم. لكنهم لم يجدوا راحةً في هذا بالتأكيد، فالحجارة لم تقف في جانب سيدها بل ضده، في عين الحجارة بدت الضربة الأولى التي ضربت لتشكيلها كأنها أكثر الأفعال لا عقلانيةً.

كان موسى، بعينيه المتسعتين وأنفه المنبسط، دائمًا بينهم، هنا، وهناك، وفي هذا المعسكر وذاك. هازًّا قبضتيه عريضة الرسغين، كان يهرول، ويستنكر، ويزجر ويخضخض وجودهم، أنَّب، وعاقبَ وطهَّرَ، مستعملاً المكيال الذي يحمله المتمثل في احتجاب الإله يهوه عن الأنظار، الإله الذي كان قد قادهم وأخرجهم من مصر حتى يختار من بينهم شعبه ثم يحوِّلهم إلى شعب مقدس، لا يقل قداسةً عنه. لكنهم غدوا الآن مجرد رعاع وطغام، حقيقةً أثبتوها عبر تفريغ أجسادهم ببساطة أينما استقلوا. كان هذا عارًا ووبالاً. عليكَ أن توفر مكانًا خارج المعسكر حتى تذهب إليه عند الحاجة. هل تفهمني؟ وخذ معك مجرفة صغيرة واحفر حفرة قبل أن تجلس، ثم اردم الحفرة بعد قيامك، فالسيد إلهك يخطو بين جنبات معسكرك، لذلك يجب أن يكون معسكرك مقدسًا، وهذا يعني نظيفًا، حتى لا يحتاج السيد الإله إلى سدِّ أنفه والاستدارة مبتعدًا عنك، فالقداسة

تبدأ من النظافة، وهي النقاء في بدايته، البداية المحضة لأي نقاء. هل تعي ما أقول، أنتَ يا أهيمان، وأنتِ يا ناعيمي زوجته؟ في المرة المقبلة أريد أن أرى الجميع يحمل تلك المجرفة، وإلا سيكون عليكم التعامل مع ملاك الدمار.

عليكَ أن تكون نظيفًا وأن تغتسل كثيرًا بمياه عذبة من أجل صحتك، فدون الماء لن توجد نظافة أو قداسة، والمرض شيء غير نظيف. لكن إذا كان اعتقادك أن السوقية والفجاجة أكثر صحةً من عادة التنظيف، إذًا فأنت أحمق وسيعرف الطريق إليك مرض الصفراء والثآليل التِينِية وبثور مصر. إذا لم تداوم على عادة النظافة، فإن الناسور الأسود الكريه سينمو في داخلك وستنتقل بذور الوباء بين دمٍ وآخر. تعلَّم أن تميّز بين النظافة والقذارة، أو أنك ستفشل أمام غير المنظور ولن تصبح سوى ركام. لذلك إذا رجل أو امرأة كان لديه جوهر متقرِّح أو ناسور كريه، إذا كان يعاني من طفح جلدي أو قرحة، فإنه أو إنها سيُعلَن غير نظيف ولن يُسمَح له بالوجود في المعسكر، بل يوضع خارجه، منعزلاً في قذارته بعد أن نفاه الرب إلى أن يصبح نظيفًا. وأيّ ما يلامسه ذلك الإنسان، أيّ ما يستقر عليه، كالسرج الذي يجلس عليه، فمصيره الحرق. لكن إذا أصبح نظيفًا ثانيةً في معتزله، فعليه أن يقضي سبعة أيام حتى يتيقَّن من نظافته حقًّا، وعليه أن يغتسل في الماء تمام الاغتسال، وحينها تمكن له العودة.

ميِّز بين الأشياء، أقول لك، وكن مقدسًا أمام الرب، فكيف لك بغير ذلك أن تصبح مقدسًا كما أريدك؟ تأكل كل ما تقع عليه يداك بلا اختيار أو تدقيق، وبالنسبة إليَّ، أنا من أراقبك دومًا، فإن هذا عمل فاحش منكر. أشياء بعينها يمكن لك أكلها وأشياء أخرى محرَّمةٌ عليك، لأنك الكبرياء والامتعاض يتجاوران داخلك. تلك الحيوانات ذات الحوافر المشقوقة التي تمضغ ما تجتره من طعام، يجوز لك أكلها، لكن تلك التي تمضغ ما تجتره من طعام لكن ذات الحوافر غير المقسومة، مثل الجمَل، فهذه قذرة بالنسبة إليك ولا يجوز لك أكلها. لاحظ جيدًا: الجمل الصالح ليس قذرًا، فهو أحد مخلوقات الله الحية، إنه غير ملائم كطعام فحسب، تمامًا كعدم ملاءمة الخنزير، الذي، رغم أن لديه حوافر مشقوقة، لا يمضغ طعامه المجترّ. لذلك ميِّز! يجوز لك أكل كل مخلوقات ذات الزعانف والقشور، لكن تلك التي تنزلق وتتلوّى وتسعى كالأفعى بلا زعانف أو قشور، كالسمندر وذريته، فإن هذه، رغم أنها أيضًا مرسلةً من الله، عليك أن تتجنبها كغذاء. من بين الطيور، ترفَّع عن النسر، والصقر، والعُقاب، وأمثالها، بل وأيضًا كل الغربان، والنعامة،

وبومة الليل، والوقواق، والبومة الصارخة، والبجع، والبومة ذات القرون، والخفافيش، وطيور الواق، واللقلق، ومالك الحزين، والبَقَّاق، والسنونو. وكذلك، فمنْ يرغب في أكل ابن عرس، والفأر والضفدع والقنفذ الشوكي؟ ومن يمكنه ارتكاب جريمة أكل العظاءات، وحيوانات الخلد، والحيَّات الزجاجية - أي كل ما يزحف على الأرض وينسلّ على بطنه؟ لكنك إن تفعلوا هذا، ستنقلب أرواحكم إلى تجسيد للمقت والاشمئزاز. المرء الذي أراه يأكل حية زجاجية بعد هذا سأعمل على أن أفرض إرادتي أنه لن يفعلها ثانيةً، فربما لن يموت المرء بسبب أكلها، ورغم أنها غير مؤذية، فإنه فعل مثير للاستهجان، وينبغي أن يثير استهجانك. لذلك محرَّمٌ عليكم أيضًا أكل الجيفة، بسبب ضررها على الأقل.

هكذا منحهم تعاليم التغذية ورسم لهم الحدود في مسائل الغذاء، وليس في ذلك فقط، بل كذلك فعل في مسائل الشهوة والحب، ففي هذا أيضًا كانوا مشتتين وغارقين في أسلوب الرعاع. محرَّمٌ عليكم الزنا، قال لهم، فالزواج حاجز مقدس. لكن هل تعرفون حقًّا ما يعنيه هذا: أن يُحرَّم عليكم ارتكاب الزنا؟ إنه يعني ألف كابح وقيد احترامًا لقداسة الرب. لا يعني فقط أن يُحرَّم عليك اشتهاء زوجة جارك، هذا أقل القيود، فرغم أنك تعيش في لحمك وجسدك، فإنك مرتبط بعهد مع احتجاب الرؤية، والزواج هو جوهر نقاء اللحم بكامله أمام وجه الله، لذلك محرَّم عليك أن تأخذ لنفسك زوجةً وأمها، كمجرد مثال، ليست أهلاً للحشمة والجدارة. بل ومحرَّمٌ عليك أبدًا وتحت أي ظرف أن تستلقي مع أختك فترى عورتها وترى عورتك، فهذا هو السفاح. بل حتى عمتك محرَّم عليك الاستلقاء معها. لا يجدر هذا بك ولا بها، ملزمٌ أنتَ بالابتعاد عن هذا. وإذا امرأة أصابها مرضٌ، فعليك تجنبها وعدم الاقتراب من نافورة دمائها. وإذا أمر مخزٍ حدث لرجل في أثناء نومه، فإنه يبقى قذرًا حتى المساء التالي، وعليه أن يغتسل في الماء بعناية.

سمعتُ أنك جعلتَ من ابنتك عاهرةً وأنك تستولي منها على أموال العُهر؟ توقف عن هذا، لأنه إذا أصررت، فسيكون أمري هو رجمك بالحجارة. بماذا تفكِّر، بالنوم مع صبي وكذلك مع امرأة؟ هذا إثم وانحطاط رعاع. كلاكما سيُساق إلى الموت. وإذا أحد عاشر حيوانًا، ذكرًا كان أم أنثى، فيجب إفناؤه بالكامل، وخنقه هو والحيوان حتى الموت.

تخيَّل ذهولهم من هذه القيود والمحاذير! في البداية سيشعرون أن الحياة غدت بالكاد جديرة بالعيش إن هم التزموا بكل هذا. صعقهم موسى بإزميل النحَّات حتى تطايرت رقائق الحجارة.

كان جادًّا حتى الموت بشأن صهر العقوبات التي فرضها على الآثام الأسوأ. ووراء أحكامه كان يقف يوشع الشاب وملائكة الدمار.

"أنا السيد إلهكم"، قال هو، مجازفًا بخطر أنهم قد يعتبرونه في الحقيقة هو الرب، "من قادكم وأخرجكم من مصر وفصلَكم عن جميع الشعوب. لذلك ستفصلون أنتم، النظيف عن القذر، ولن تبحثوا عن العُهر في القبائل الأخرى بل ستعتنقون القداسة أمامي، فأنا سيدكم، المقدس، وقد فصلتكم حتى تكونوا ملكًا لي. من بين جميع الأفعال القذرة فإن الفعل الأكثر قذارة هو اتّباع أي إله آخر، فأنا إله غيور. الفعل الأكثر قذارة هو أن تتخذوا صورة، سواء كانت شبيهة امرأة أو رجل، ثور أو عُقاب أو سمكة أو دودة. بفعلكم هذا ستصبحون خائنين لي، حتى إن كانت الصورة على مثالي، حتى إن امتنعتم عن الاستلقاء نائمين بجوار شقيقاتكم أو بجوار حيوان. فعلٌ كهذا ليس بعيدًا جدًّا، وسريعًا جدًّا ما يتسلل بينكم. احذروا! أنا بينكم وأرى كل شيء. سأغرق أيًّا من يرتكب العُهر مقتفيًا أثر آلهة الحيوان والموت في مصر. سأقوده إلى الصحراء وأنفيه كمنبوذ. والشيء نفسه سأصبّه على من يقدِّم القرابين إلى مولوخ(7) الذي أعرف أنكم ما زلتم تحملونه في ذاكرتكم. إذا استهلكتم قواكم على شرفه، فسأعتبر هذا شرًّا مطلقًا وأصب عليك جام غضبي. محرَّمٌ عليكم أن تسمحوا لأبنائكم أو بناتكم بالسير عبر النار بحسب العادة القديمة البالية، ولا أن تلقوا بالاً لرحلة صعود الطيور وصيحاتها، ولا التهامس مع العرَّافين أو المنجمين أو المتنبئين بالمصير، ولا أن تسألوا الأموات أو تمارسوا السحر باسمي. إذا كان من بينكم شقي واستولى على اسمي في شهادة زور، فلن يجني شيئًا من هذه السعاية الكاذبة، لأنني سأفنيه. بل من السحر والإثم أن تضعوا علامات على جسد المرء، أن تحلقوا حاجبَي المرء وتضعوا الشقوق على وجهه كعلامة الحزن على الميّت - لن أطيق صبرًا على هذا".

(7) إله كنعاني قديم كان ذا نزعة شريرة لا يرضى إلا بقرابين الأطفال – (المترجم)

كم كان عظيمًا ذهولهم. لم يسمح لهم حتى بشقِّ وجوههم حدادًا على الأموات، بل لم يسمح لهم بوشم أنفسهم قليلاً. أدركوا الآن ما يعنيه احتجاب الله عن الأنظار، كان يعني حرمانًا مريعًا، مسألة الاتحاد هذه مع يهوه. لكن لأن وراء تحريمات موسى كانت تقف ملائكة الدمار، ولأن لا أحد كان يرغب في الخروج إلى الصحراء، فإن ما حظره موسى سريعًا ما بدا لهم جديرًا بالخوف. في البداية كان جديرًا بالخوف فقط في ما يتصل بالعقاب، لكن خطوة بخطوة اتخذ

الفعل صبغة الشر المطلق، وأصبح المرض هو ما ينتظرهم إن ارتكبوا الفعل، بعيدًا عن مسألة العقاب.

أحكِموا لجام قلوبكم، قال لهم، ولا تلقوا بأعينكم على ممتلكات أيٍّ من كان الآخرين. وإذا تاقت أنفسكم نحوها، فسريعًا ما تستولون عليها، سواء باختلاسها خفيةً، وهو جُبن، أو قتل الآخر، أي الوحشية. لا نريد لكم أنا ويهوه أن تكونوا جبناء أو متوحشين، بل أن تكونوا في المنتصف بين الاثنين، وهذا يعني أن تكونوا متعففين. هل تعون هذا جيدًا؟ أن تسرق يعني الدناءة المتخفية، لكن أن تقتل، سواء بدافع من الغضب أو الجشع، أو من الغضب الجَشِع أو من الجشع الغاضب، فهو خطيئة مستعرة. وضد من يرتكب خطيئة كهذا سأنظر بمجامع وجهي حتى لا يجد مكانًا للاختباء، لأنه سفحَ دمًا والدم جلال مقدس وسرٌّ متين، يُقدَّم على مذبحي نيلاً للتكفير. محرَّم عليكم أكل الدم أو اللحوم الغارقة في الدماء، فالدماء مِلكي أنا. وذلك الذي يلطِّخ يديه بدماء إخوته من البشر، سيصيب قلبه السقم والفزع البارد وسأقوده حتى يهرع هاربًا من نفسه حتى نهايات العالم. رددوا ورائي: آمين.

وكان أن قالوا آمين، آملين ما زالوا أن ذلك الحظر يعني القتل فقط. فكثيرٌ منهم لديهم الرغبة في القتل، وهؤلاء قد ارتكبوا فعل القتل بضع مرات فحسب. لكنهم اكتشفوا أن يهوه قد وضع في الكلمة معنى واسعًا، لأنه كان قد قدَّم لهم كلمة "الزنا"، وبها كان يقصد كل أنواع الأشياء، بالتالي فإن "سفك الدم" و"القتل" يبدآن بأي نوع تقريبًا من انتهاك الشرائع. تقريبًا كل جرح يصيب به إنسان إنسانًا، سواء عبر الخيانة أو الخديعة (والشعب بكامله تقريبًا يتوق قليلاً للخيانة والخديعة)، قد اعتُبر سفكًا للدماء من جانب يهوه. عليهم بالتالي ألا يتعاملوا بزيف بين بعضهم، وألا يشهدوا زورًا ضد جيرانهم، وأن يستخدموا أوزانهم وقياساتهم بالقسطاس، كان هذا تجسيدًا لأعلى درجات اللامعقولية، ولم يتبقَّ لهم الآن إلا الخوف المعقول من العقاب، وهو ما منح حسًّا من المعقولية لكل هذا الأوامر والتحريمات.

إن على المرء أن يبدي احترامه لأمه وأبيه كما أمر موسى، ذلك أيضًا كان له معنى أوسع، أوسع مما يظن المرء للوهلة الأولى. أيًّا من يسب ويرفع يديه ضد من أنجبه، حسنًا، يجب أن ينال عقابه. لكن الاحترام أيضًا يمتد لكل من يمكن أن يكون مُنجبك ببساطة. عليك أن تنهض واقفًا أمام الرؤوس الرمادية. عليك أن تقاطع ذراعيك وتخفض رأسك الأحمق. هل تعي ما أقول؟

يتبع هذا الأدب مع الله. العزاء الوحيد كان حيث أنه لا يجوز لجارك قتلك، فأمامك احتمال معقول لأن تصبح أنت نفسك عجوزًا يملأ رأسَك الشيب، وبالتالي سينهض الآخرون وقوفًا أمامك.

أخيرًا، يبدو أن العمر العجوز كان رمزًا لكل ما هو قديم في العموم، كل ما لا يحدث اليوم أو غدًا ولكن يجيء من زمن سابق طويل: عادة الآباء التقليدية، التقيّة. عرفانًا بذلك على المرء أن يبذل آيات التبجيل إلى الله. ستراعون أيام سبتي، اليوم الذي قدتكم وأخرجتكم فيه من مصر، يوم الخبز غير المختمر، واليوم الذي استرحتُ فيه من أعمال الخلق. لن تلوِّثوا يومي المقدس بعرق جباهكم. أحرِّم عليكم هذا، فقد أخرجتكم وقدتكم من بيت العبودية المصري بيدي الجبَّارة وذراعي الممتدة، حيث كنتم عبيدًا وحيوانات عمل. ويومي هذا سيكون يوم حريتكم، يومًا تراعون قداسته. ستة أيام تكونون فيها حارثين أو زارعين أو فخَّارين أو نحَّاسين أو نجَّارين، لكن في يومي سترتدون أردية نظيفة ثم لا تفعلون شيئًا، لا شيء سوى كونكم كائنًا بشريًّا يرفع عينيه تجاه غير المنظور.

كنتم خدمًا مستعبدين في أرض مصر. فكِّروا في هذا في أثناء سلوككم تجاه الغرباء بينكم: أطفال العماليق مثلاً، الذين وضعهم الله بين أيديكم، لا تظلموهم، انظروا إليهم كما تنظرون إلى أنفسكم وامنحوهم حقوقًا متساوية، وإلا فإنني سأحطمكم إلى شظايا، فهم أيضًا يتمتعون بحماية يهوه. بإيجاز، لا تفرضوا ذلك التمييز المتغطرس الأحمق بينكم وبين الآخرين، حتى تظنوا أنكم وحدكم الشعب الحقيقي وأنكم وحدكم الشعب المعتبر، في حين أن الآخرين مجرد ظل. كلاكما تتمتعان بحياة مشتركة، والصدفة وحدها هي ما جعلتكم ما أنتم عليه وليس كالآخرين، لذلك، لا تحبوا أنفسكم فحسب لكن أحبوا الآخر بالطريقة نفسها، وارغبوا لهم في ما ترغبون فيه نفسه. كونوا أسخياء بين بعضكم بعض وقبِّلوا أطراف أصابعكم عندما يمر بعضكم ببعض وأحنوا رؤوسكم بتحضُّر وقدِّموا التحية، "لتحلَّ عليك الصحة والعافية"، لأنه من الأهمية أن يتمتع الآخر بصحته تمامًا كما تتمتعون بها. وحتى إن كان مجرد نشاط رسمي أن نقوم بهذا ونقبِّل أطراف أصابعنا، فإن الإيماءة وحدها تفعل فعلها في قلبك وقلب جارك. قولوا جميعًا آمين!

وقالوا جميعًا آمين.

الفصل 19

(16)

لكن واقع الأمر أن تلك "الآمين" لم تكن تعني الكثير، فقد قالوها فقط لأن موسى كان هو الرجل الذي قادهم وأخرجهم بنجاح من مصر، الرجل الذي أغرق عربات فرعون الحربية، والذي انتصر في معركة قادش. استغرق الأمر وقتًا طويلاً جدًّا قبل أن يجد ما علَّمهم إياه - كل تلك الممنوعات، والقوانين، والمحظورات - طريقه إلى جوهر لحومهم ودمائهم. كان عملاً هائلاً ما تعهد لنفسه بإنجازه، مهمة تغيير الركام وتحويله إلى شعب مخلص للسيد الإله، وإلى صورة نظيفة يمكنها نيل رضا غير المنظور. غارقًا في عرق جبينه عملَ موسى في محل عمله، قادش. أبقى عينيه متسعتين على الجميع. نحتَ، وحطَّم، وشكَّل، ونعَّمَ الحجارة العنيدة بصبر دؤوب، بأناة طويلة وتسامح لا ينقطع، لكن أيضًا بغضب مشتغل وتصلُّب مُنتقِد. مع ذلك، كثيرًا ما أوشك على السقوط فريسةً لليأس عندما كان اللحم يرتد إلى العناد والنسيان، عندما يخفق الشعب في استخدام المجرفة، عندما يأكلون الحيات الزجاجية، ينامون مع شقيقاتهم أو حيواناتهم، يضعون العلامات على أنفسهم، يجثمون مع العرافين، يتسللون خلسةً من أجل السرقة، ويقتل بعضهم بعضًا. "أوه يا ركام"، قال لهم، "سترون. سيظهر السيد الإله من فوقكم ويُفنيكم". لكن للسيد الإله نفسه قال: "ماذا أفعل بهذا اللحم، ولماذا انتزعت بركاتك منّي؟ لماذا تُحمِّلني بأمر لا أستطيع تحمُّله؟ أهون عليَّ تنظيف إسطبل لم يمسَّه بشر لسنوات بالماء أو المسحاة، أو تفريغ غابة مزدحمة بيديَّ العاريتين وتحويلها إلى حديقة غنَّاء، على أن أستخدمهما لأشكِّل من أجلك صورة نظيفة. لماذا يجب عليَّ حمل هذا الشعب على ذراعين كما لو كنتُ أنا من أنجبهم؟ لستُ سوى نصف قريب لهم من ناحية أبي، لذلك أصلي لك من أجل أن تتركني أستمتع بحياتي، وتحررني من هذه المهمة، أو لك أن تخنقني بيديك!"

لكن الإله أجاب موسى منبثقًا من ضميره الداخلي بصوت شديد الوضوح لدرجة أنه سمعه بأذنيه وشعر به على وجهه:

"فقط لأنك نصف قريب لهم من ناحية الأب الذي دُفن، فأنت الرجل المناسب لتشكيلهم من أجلي وتنشئتهم حتى يتحولوا إلى شعب مقدس. لأنك إذا كنت واحدًا منهم بالكامل، فلن تستطيع حينها رؤيتهم بما هم عليه ولن تستطيع العمل على تشكيلهم. على أي حال، كونك تشتكي إليَّ وترغب في إعفاء نفسك من مهمتك هو محض تأثُّر متكلِّف، فأنت تعلم تمام العلم أن عملك بدأ في إتيان ثماره. تعلم أنك منحتهم بالفعل ضميرًا يصيبهم بالاضطراب عندما يرتكبون الشرور. لذلك لا تتظاهر أمامي بأنك لا ترغب في عملك. إنها رغبتي أنا، رغبة الله هي ما لديك، وغيابها من داخلك سيصيبك بالسقم من الحياة كما أصاب السقم شعبنا من تناول المنّ بعد بضعة أيام. بالطبع، إذا قررتُ خنقك، فإذًا نعم، حينها ستتخلص من تلك الرغبة وذلك التوق".

تفهَّم موسى شديد الاضطرار كل هذا، وأومأ برأسه لكلمات يهوه في أثناء استلقائه هناك، ثم نهض ثانيةً لاستئناف عمله. لكنه الآن يواجه مشكلات من نوع جديد، ليس فقط بصفته نحَّات ينحت الشعب، لكن بدأت القلاقل والحزن في التسلل إلى حياته الأسرية. انتشر الغضب والحسد والمشاكسة من حوله ولم يعد يجد راحةً وسلامًا في كوخه. ربما كان الخطأ خطأه، خطأ حواسه، فحواسه، مضطربة بسبب العمل الكثير، تعلَّقت بفتاة زنجية، الفتاة الزنجية المعروفة جيدًا.

يعلم الجميع الآن أن موسى في هذا الوقت كان يعيش مع فتاة حبشية وكذلك مع زوجته، صفوريا، أم أبنائه. كانت مومسًا من أرض كوش قدمتْ إلى مصر في طفولتها، وعاشت بين القبائل العبرانية في غوشين، ثم انضمت إليهم في خروجهم من مصر. بالتأكد كانت قد عرفت رجالاً كثيرين، مع ذلك اختارها موسى كرفيقة فراشه. كانت عيّنة رائعة من بنات مهنتها، بثديين منتصبين، وعينين مستديرتين، وشفتين ممتلئتين، يكلِّف الغرق فيها مغامرة محفوفة بالمخاطر، وجلد يشع بالبهارات. عشقها موسى بقوة، كانت محطَّ لهوه واستجمامه، ولم يكن ليتخلى عنها، رغم أنه جلب على نفسه بذلك عداء المنزل بكامله. ليست زوجته المديَنية وابناها فحسب من نظروا بامتعاض إلى العلاقة، لكن أيضًا وخاصةً شقيقته بالتبني ميريام وشقيقه بالتبني هارون. لكن صفوريا، التي كانت تتمتع بكثير من الحكمة الهادئة لشقيقها جيترو، تحمَّلت الأمر على نحو ما مع منافستها، خاصةً أن الفتاة الحبشية تعرف جيدًا كيف تخفي انتصارها الأنثوي وتتصرف بخضوع تجاهها. تعاملت صفوريا مع الفتاة الحبشية باستهزاء يخفي

الكراهية، واستخدمت نحو موسى أسلوبًا خفيفًا من السخرية أخفت الغيرة التي تشعر بها. وابناه، غيرشوم وإليعازر، العضوان في فرقة يوشع المتحمسة، كانا يتمتعان بحسٍّ كبير من الانضباط منعهما من الثورة بصراحة ضد أبيهما، لكنهما لم يخفيا قط غضبهما وشعورهما بالعار بسببه.

مع ذلك، كان الأمر مختلفًا مع مريام النبيّة وهارون المداهن. كانت كراهيتهما للعشيقة الحبشية أكثر شراسةً وسُميَّةً من الآخرين، لأن تلك الكراهية كانت تعبيرًا عن أحقاد أعم وأعمق خلقت بينهما اتحادًا ضد موسى. لزمن طويل الآن كانا يحسدان موسى على سيادته الروحانية وعلى علاقته الوثيقة مع الله، بعد أن شعر بنفسه وقد غدا عامل الله المصطفى، وهو ما يظنان أنه خديعة كبيرة، اعتبرا نفسيهما لا يقلان خيرًا أو صلاحًا عنه، بل ربما أفضل. قال أحدهما للآخر: "هل يتحدث السيد الإله عبر موسى فقط؟ ألا يتحدث من خلالنا أيضًا؟ من هذا الرجل موسى؟" كان ذلك إذًا السبب الحقيقي لشعور الغضب الذي أبدياه تجاه هذه العلاقة مع الحبشية. وفي كل مرة يُقرِّعان بصخب شقيقهما المبتلى بشغف لياليه، سرعان ما يتحولان إلى شكاوى أكثر عمومية، وسريعًا ما يستغرقان في الاستطراد بشأن الظلم الذي وقع على مصائرهما بسبب الارتقاء الذي حظيَ به موسى.

في ذات مرة مع اقتراب النهار من نهايته، كانا في الكوخ وضايقاه بطريقة لم يكن ينبغي أن يضايقاه بها: الحبشية هنا والحبشية هناك، وأنه لا يفكر في شيء سوى صدرها الأسود وأي فضيحة كانت، وأي عار ألحقه بزوجته الأولى صفوريا، وأي خطر تكشَّف له هو من يدَّعي أنه أمير الله والمتحدث الوحيد باسم يهوه على الأرض.

"أدَّعي؟" قال لهم. "أنا ما أمرني الله أن أكونه. كم هو قبيح منكما، قبيح جدًّا، أن تحسداني على متعتي واسترخائي على صدر الحبشية. فهذه ليست خطيئة في أعين الله، ولا يوجد محظور بين جميع المحظورات التي أرسلها إليَّ يقول إنه لا يجوز للمرء أن يستلقي مع حبشية. لا يوجد على حسب علمي".

لكنهما أجاباه قائلين إنه اختار محظوراته وفقًا لذائقته الخاصة وحدها، ومن الممكن جدًّا أنه قريبًا سيخطب في الشعب أنهم ملزمون بالاستلقاء مع الحبشيات. أليس هو من اعتبر نفسه المتحدث الوحيد باسم يهوه؟ الحقيقة أنهما، ميريام وهارون، كانا أطفال عمرام الحقيقيين وأحفاد ليفي، أما

هو، في نهاية الأمر، ليس سوى لقيط وُجدَ بين أجمة البركة، عليه أن يتعلَّم بعض التواضع وألا يصرَّ كثيرًا على فتاته الحبشية وألا يتجاهل تعاستهما بكل هذه الأريحية، فسلوك كهذا دليل على غروره وخداعه.

"من يستطيع فعل شيء حيال ما يُسمى به؟"، أجابهم "هل باستطاعة أي رجل فعل شيء تجاه ذلك إذا وجد طريقه إلى أجمة الأشواك المتحرقة؟ يا ميريام، طالما نظرتُ بتقدير إلى هباتك التنبؤية ولم أنكر قط إنجازاتك على الدف".

"إذًا لماذا أصدرت أمرك بمنع ترنيمتي الجواد والرجل؟ ولماذا حرمتني من قيادة الرقصة المستديرة للنساء؟ زعمتَ أن الله يمنع هذا القطيع من الاحتفال بالانتصار وسقوط المصريين. كان هذا شيئًا مقيتًا من جانبك".

"وأنت، يا هارون"، تابعَ موسى ذو القلب المثقل، "أنت من استخدمتك كبيرًا للكهنة في خيمة الهيكل الطوَّاف، وأودعتُ الإيفود والحية النحاسية إلى رعايتك. هكذا كان تقديري لك".

"هذا أقل ما كان ينبغي عليك فعله"، أجابه هارون. "فدون فصاحتي لم تكن لتستطيع مطلقًا إقناع الشعب بقضية يهوه، أو أن تقنعهم بالخروج من مصر. انظر جيدًا إلى بلاهة وخرَق فمك! لكنك الآن تسمي نفسك الرجل الذي قادنا وأخرجنا من مصر! إن كنَّا موضع تقدير من جانبك، وإن كنتَ حقًّا لم تسمُ بنفسك بكل غطرسة على أقرباء دمائك، فلماذا لا تلقي بالاً لكلماتنا؟ لماذا تصرُّ على صممك تجاه اشمئزازنا من تلويث القبيلة بكاملها بعشيقتك السوداء؟ إنها بالنسبة إلى صفوريا، زوجتك المديَنية، منبع لنهر مرّ متقيّح، بل إنك تُخزي مديَن بكاملها بفعلك هذا، لدرجة أن صهرك جيترو قد يعلن علينا الحرب قريبًا - كل هذا من أجل نزوتك الملوَّنة".

"جيترو"، قال موسى، كاتمًا غيظه، "هو رجل حكيم هادئ يفهم جيدًا أن صفوريا - طيبة الذكر! لم تعد قادرة على توفير الترفيه والاستجمام المطلوب لرجل مُثقل بالأحمال والأعمال. لكن جلد عشيقتي الحبشية كالقرفة وعطر القرنفل في أنفي، كل حواسي تتوق إليها، ولذلك أتوسل إليكم، أصدقائي الطيبين، أن تمنحوها إليَّ".

لكنهما لم يكونا راغبين في تقديم هذا المنح. تعالى صياحهما وطالبا بأنه عليه ليس فقط أن يهجر الحبشية ويحرِّم عليها فراشه، بل أن يقودها كذلك إلى الصحراء بلا ماء.

بقولهما هذا انتفخت عروق الغضب في جبينه وبدأت قبضتاه في الارتعاش المرعب. لكن قبل أن يتمكن من فتح فمه حتى يجيبهما، بدأت ارتعاشة من نوع مختلف تمامًا.. تدخَّل يهوه ووضع صورته أمام الشقيق والشقيقة قاسيي القلب، وهرعَ إلى نجدة موسى بطريقة لن ينسياها ما حييا. شيء ما مرعب، شيء ما لم يُعرف من قبل قط، وقع حينها.

الفصل 20

(17)

ارتعشت الأسس والقواعد. اهتزت الأرض، وارتعشت وتمايلت تحت أقدامهما حتى أصبحا عاجزين عن الوقوف منتصبين، بل ترنَّحا وتمايلا جيئةً وذهابًا في الكوخ، الذي بدا كأن أعمدته تهتز بفعل قبضات هائلة الحجم. ما كان ثابتًا بدأ في الارتجاج، ليس في اتجاه واحد فحسب لكن في تطوفات متمايلة ودوَّارة. كان الأمر مريعًا. وفي الوقت نفسه ظهر صوت زمجرة وهزيم بدا كأنه جاء من أعماق الأرض وانتشر إلى الأعلى ومن الخارج كدويّ بوق عظيم، تبعه أزيز، وقصف راعد، ثم حفيف. من العجيب جدًّا والمحرج على نحو غريب أن تكون على شفا الانفجار من الغضب، ثم يأخذ السيد الإله الكلمات من شفتيك ثم ينفجر هو بغضب لا قبل لك بالوصول إليه بنفسك، ويهزّ العالم في حين لا يمكنك إلا هزّ قبضتيك البائستين.

كان موسى الأقل شحوبًا من الرعب، فقد كان، في كل الأحوال مجهزًا للتعامل مع الله. أما بالنسبة إلى هارون وميريام، فقد شحبا حتى الموت، وهرعا خارجين من المنزل. حينها رأيا أن الأرض قد فتحت فكيها وأن فجوة عظيمة تتثاءب بجوار كوخهما مباشرةً. كان من الواضح أن هذا المزق كان مقدَّرًا لميريام وهارون، وأنهما نجحا في الإفلات منه ببضع خطوات فحسب. ثم نظرا في اتجاه الجبل في الشرق وراء الصحراء، حوريب وسيناء - لكن ما كان يحدث على حوريب، هل كان يحدث على سيناء أيضًا؟ إنه ينتصب هناك مغلفًا من قاعه إلى قمته بالدخان واللهب، وملقيًا بشظايا متوهجة نحو السماء، بصوت قرقعة مخيف يأتي من بعيد. أنهار من النار تنساب نازلةً على جوانبه. أدخنته، متقاطعة مع البرق، قد أخفت النجوم فوق الصحراء، وببطء بدأت أمطار الرماد في الهبوط على واحة قادش.

سقطَ هارون وميريام على جبهتيهما، الشقّ المقدَّر لهما غدا الآن ممتلئًا بالرعب. هذا التكشُّف من جانب يهوه أظهر لهما أنهما تماديا كثيرًا وأنهما نطقا بالحماقات. صاح هارون مستثارًا:

"أوه يا سيدي، هذه المرأة شقيقتي قد ثرثرت بكلمات قبيحة. تقبَّل صلاتي ولا تدع الخطيئة تلتصق بها، الخطيئة التي ارتكبتها ضد الرجل الذي عمَّده السيد الإله".

صرخت ميريام في موسى أيضًا وتحدثت وقالت: "يا سيدي، يستحيل أن يتحدث المرء بحماقة أكبر مما نطق أخي هارون. اغفر له ولا تدع الخطيئة تلتصق به، حتى لا يبتلعه الله فقط لأنه تحدث ببضع كلمات بشأن الحبشية".

لم يكن موسى متيقنًا تمامًا ما إذا كان انكشاف يهوه موجهًا حقًّا إلى شقيقه وشقيقته ونقص الحب عندهما، أم أنه كان الدعوة المقدَّرة له، الدعوة التي انتظرها طويلاً، الدعوة التي ستناديه للاجتماع مع الله لبحث مسائل شعبه وأعمال تعليمهم. لكنه تركهما في افتراضاتهما الخاصة وأجاب:

"ها أنتما تريان. لكن تحليا بالشجاعة، يا أطفال عمرام. سأقدم كلمة طيبة لصالحكما في الأعلى أمام الله على الجبل، فإلى هناك يناديني. والآن ستريان، وسيرى كل الشعب، إن كان أخوكما قد خسرَ إنسانيته بغرامه الأسود أم أن شجاعة الله ما زالت تسكن قلبه أقوى مما تسكن كل القلوب الأخرى. إلى الجبل الجهنمي سأذهب، وحيدًا تمامًا، نحو الله، حتى أسمع أفكاره وأتعامل مع الخوف بفكرة تبعث على الخوف، على قدم المساواة، بعيدًا عن الشعب، لكن من أجل قضيتهم. لزمن طويل أعرف أنه يتمنى أن يدوِّن كل ما علَّمتكم إياه من أجل خلاصكم بكلمات مُلزمة، بخلاصة تستمر إلى الأبد، كلمات ربما أحملها معي عائدًا إليكم من جبل الله، وكلمات ربما يحوزها الشعب في خيمة الهيكل الطوَّاف، جنبًا إلى جنب مع الصندوق، والإيفود، والحيَّة النحاسية. وداعًا. ربما أفنى في اصطخاب الله، في نيران الجبل، عليَّ أن أتوقع هذا. لكن إذا نجحتُ في العودة، فحينها سأنقذ من بين هزيمه ورعده الكلمة الأبدية، قانون الله".

كان هذا قراره الحاسم، من أجل الحياة أو الموت، الذي اتخذه بلا رجعة. فمن أجل ترسيخ جذور الشعب المعاند، الركام، المنتكس دومًا على شرائع الله، من أجل زرع الخوف فيهم من قوانينه، لا شيء أكثر فعالية من أن يذهب هو، وحيدًا وعاريًا ومغامرًا، ويصعد الجبل المتدفق للوصول إلى يهوه وفظائعه، ومن هناك يحمل نازلاً الأوامر. وحينها، يعتقد موسى أنهم سيتبعون الأوامر.

عندما جاء الشعب هرعًا من كل الجوانب إلى كوخه، مرتعشين وجاثين، مرتعبين بالعلامات وبتمايلات الأرض المفزعة التي حدثت مرةً ثم ثانيةً، وإن كانت أضعف، منعهم موسى من ممارسة اهتزازاتهم المعهودة وعاتبهم حتى استعادوا هدوءهم. ناداه الله، قال موسى، من أجلكم، وعليه الصعود إلى يهوه، إلى قمة الجبل، والرجوع بشيء ما من أجلهم، تحقيقًا لإرادة الله. عليهم، رغم ذلك، العودة إلى بيوتهم والتحضير من أجل الحجّ. عليهم أن يحافظوا على نظافتهم وأن يغسلوا أرديتهم ويتجنبوا زوجاتهم، وغدًا عليهم أن يرتحلوا خروجًا من قادش إلى الصحراء بالقرب من الجبل، وهناك يعسكرون وينتظرونه حتى عودته من اللقاء المهيب، جالبًا ربما شيئًا ما مع عودته إليهم.

وهكذا حدثت الأشياء، أو على الأقل هكذا بدتْ. لم يتذكَّر موسى في مسلكه هذا سوى أن يخبرهم بأن يغسلوا أرديتهم ويتجنبوا زوجاتهم. كان يوشع، الشاب الإستراتيجي، قد تذكَّر ما كان ضروريًّا أيضًا لهذه الرحلة، زوَّد قواته بكميات المياه والغذاء الملائمة والضرورية للآلاف في الصحراء، وأسس أيضًا خط اتصال بين قادش ومقر المعسكر في الجبل. خلَّف وراءه كالب قائده في قادش مع مفرزة شرطية لمراقبة هؤلاء الذين لم يستطيعوا أو لم يرغبوا في المجيء معهم. عندما أشرق فجر اليوم الثالث وأنجزت جميع التحضيرات، انطلق جميع الآخرين بعرباتهم وحيواناتهم المجهزة للذبح. مضوا في رحلتهم نحو الجبل، رحلة يوم، ونصف يوم آخر ربما. هناك، على مسافة تبجيلية من مستقر يهوه ذي الدخان المنبعث، شيَّد يوشع حظيرةً مطوَّقة. فرض على الناس بكل حسم، وباسم موسى، عدم التفكير مطلقًا في صعود ذلك الجبل أو حتى أن يطؤوه بأقدامهم، فالسيد وحده هو من يتمتع بامتياز الاقتراب إلى هذا الحد من الله. علاوة على ذلك، كان ذلك شديد الخطورة، وأيّ من يلامس الجبل فعقابه الرجم أو الاختراق بسهم. استقبلوا هذا الأمر عبر خطواتهم السريعة، فالدهماء لم تكن لديهم أي رغبة في الاقتراب من الله كثيرًا. بالنسبة إلى الرجل العادي لم يكن الجبل ذا نظرة مثيرة للاهتمام بأي شكل، سواء نهارًا، عندما ينتصب يهوه عليه في سحابة كثيفة يتقاطع معها البرق، وبالتأكيد ليس ليلاً، عندما تتوهج السحابة وقمة الجبل بكاملها.

كان يوشع شديد الفخر بشجاعة سيده الذي، في صباح اليوم الأول وقبل الناس جميعًا، اتخذ طريقه نحو الجبل، وحيدًا على قدميه محملاً بعدة الحاج، مزودًا فحسب بدورق من طين، وحفنة

من كسرات الخبز، وبعض الأدوات، فأس، إزميل، ومجرفة وقلم مستدق الطرف. شديد الفخر كان الشاب، ومبتهجًا كان بالانطباع الذي ستخلقه تلك الجسارة المقدسة لدى الجموع. لكنه كان قلقًا أيضًا بشأن الرجل الذي كان يعبده، وتوسَّل إليه ألا يقترب كثيرًا من يهوه وأن يكون حذرًا من التيارات المنصهرة الملتهبة التي تنساب هابطةً من جوانب الجبل. كذلك، قال له، فإنه سيزور موسى مرةً أو مرتين للاعتناء به، حتى لا يفتقد السيد في برية الله إلى أبسط الاحتياجات الضرورية.

الفصل 21

(18)

عبرَ موسى الصحراء، مستندًا إلى عصاه، مستقرًا بعينيه على جبل الله، الذي كان كتنّور ينبعث منها الدخان، نافثًا اللهب كبركان. كان الجبل ذا شكل فريد، يحتوي على تشققات وأوردة بدت أنها تقسِّمه إلى شرفات، وبدت كممرات صاعدة، لكنها لم تكن ممرات في الحقيقة، لكن مجرد تدرُّجات ذات حوائط صفراء. في اليوم الثالث، بعد صعود عدة تلال سفحية، وصلَ مبعوث الله إلى القاع الأجرد للجبل. ثم بدأ في الارتقاء، قبضته متشبثة بعدة الحاج التي وضعها أمامه. صعد الكثير بلا مسار أو أثر، خطوة بخطوة، إلى أعلى، دائمًا إلى أعلى، نحو جوار الله. صعد بأقصى ما يمكن لكائن بشري، لأنه سرعان ما اختنق بالأدخنة الكبريتية ذات رائحة المعادن المنصهرة التي ملأت الهواء من حوله، وبدأ في السعال. وصلَ إلى أعلى شقّ وشرفة تمامًا تحت قمة الجبل، وهناك كان بإمكانه رؤية مشهد واسع لسلاسل الجبال الجرداء المقفرة على الجانبين، وإلى ما وراء الصحراء وصولاً إلى قادش. أدنى من ذلك كان بإمكانه رؤية الشعب في حظيرتهم، بعيدين جدًّا أسفل منه ومتناهين في الصغر.

هنا عثرَ موسى، الغارق في السعال على كهف في جدار الجبل، على كهف ذي سقف صخري ناتئ يمكن أن يحميه من الأحجار المتساقطة والحساء المتدفق. هناك اتخذ مسكنه ورتَّب نفسه للبدء، بعد نوبة قصيرة لالتقاط أنفاسه، في العمل الذي كان الله قد أمره به. تحت هذه الأحوال العصيبة - فأدخنة المعادن قد استقرت وجثمت على صدره وأكسبت حتى الماء طعم الكبريت -استمر عمله هناك في الأعلى راسخًا طوال أربعين نهارًا وأربعين ليلة.

لكن لماذا استطال عمله هكذا؟ سؤال لا طائل منه! فالأبدي كان لا بد أن يُسجَّل، وكلمة العهد الملْزِم كان لا بد أن تُنطَق، وقانون الله الأخلاقي الموجز كان لا بد أن يؤخذ ثم يُحفَر نحتًا في حجارة الجبل، حتى يمكن لموسى أن يجلبه نزولاً إلى الغوغاء الحائرين، إلى دماء أبيه المدفون تحت التراب، إلى المعسكر حيث كانوا ينتظرون. هناك كان مقدَّرًا له أن ينتصب شامخًا وينتقل

من جيلٍ إلى جيل، غير منقطع ولا منكسر، محفورًا أيضًا في عقولهم وفي لحومهم ودمائهم، جوهر الفضيلة البشرية.

من وعيه الباطني أمره الله بنحت وتشكيل لوحين من الصخور وأن يكتب عليهما أوامره، خمس كلمات على الأول، وخمس كلمات على الثاني، حتى تشكِّل معًا عشر كلمات. لم تكن مهمة سهلة على موسى أن يشيِّد اللوحين، أن يصقلهما ويشكِّلهما إلى أوعية ملائمة للإيجاز الأبدي. فبالنسبة إلى رجل وحيد، حتى لو احتسى حليب ابنة بنَّاء، حتى لو كان يتمتع برسغين عريضين، فلا يزال ذلك بالنسبة إليه عملاً معرضًا للكثير من الحظ العاثر. من الأيام الأربعين استغرق الأمر رُبعًا. لكن التدوين الفعلي كان مشكلةً، قد يؤدي حلُّها إلى استطالة أيام موسى على الجبل لأكثر من الأربعين.

فبأي طريقة كان عليه أن يكتب؟ في أكاديمية طيبة كان قد تعلَّم الكتابة المصورة المزخرفة للمصريين بكل تعديلاتها الحالية. تعلَّم أيضًا الكتابة المسمارية الرسمية، نظريًّا، لنهر الفرات، التي كان ملوك العالم توَّاقين لتبادل أفكارهم بها على شظايا من الطين. أحاط علمًا بلغة أهل مدَّين عبر طريقة سحرية ثالثة لاقتناص المعاني. كانت هذه اللغة تتشكل من الأعين، والصلبان، والصور المنمنمة، والدوائر والخطوط الأفعوانية بأشكال كثيرة. كانت طريقة مستخدمة في سيناء منسوخة بحماقة صحراوية من المصريين. علامتها، رغم ذلك، لا تمثِّل كلمات كاملة أو صورًا للكلمات، لكن أجزاء منها فحسب، على شكل مقاطع منفردة تُقرأ معًا.

أيًّا من هذه الأساليب الثلاثة لتأليف وتشكيل الأفكار لم ينَل رضاء موسى، نتيجة السبب البسيط بأن كل منها كان مرتبطًا بلغة معينة وغارقًا بالفطرة في تلك اللغة. أدرك موسى جيدًا أنه لن يتمكن تحت أي ظرف من أن يضع على الحجارة إملاءات الكلمات العشر، سواء باللغة البابلونية أو المصرية، أو حتى بلهجة بدو سيناء الرحَّل، فالكلمات على الحجارة لا يمكن إلا أن تكون بلغة دماء أبيه، اللهجة نفسها التي كان يتحدث بها، والتي استخدمها هو نفسه في تعاليمه. لم يكن مهمًّا إن كانوا سيقدرون على قراءتها أم لا. في الحقيقة، كيف يمكن لهم بأي حال قراءة لغة لا يستطيع أحد حتى الآن كتابتها؟ لم يتوافر لهم رمز سحري لتمثيل وتشكيل حديثهم.

بكل روحه كان موسى يتمنى لو وجد رمزًا كهذا، رمزًا يمكنهم تعلُّم قراءته سريعًا، سريعًا جدًّا، رمزًا يمكن للأطفال، وهو ما كانوا عليه في حقيقة الأمر، تعلُّمه في أيام قليلة. يتبع ذلك بالتالي أن ينجح شخص ما في التفكير في رمز كهذا واختراعه في أيام قليلة، كل هذا بمساعدة الاقتراب من الله. نعم، لأنه غير موجود، على شخص ما أن يُعمل فكره ويخترع هذه الطريقة الجديدة للكتابة.

يا لها من مهمة مُلحَّة وثمينة! لم يكن قد فكَّر في كل هذا مسبقًا، بل فكَّر ببساطة في "الكتابة"، ولم يأخذ في اعتباره أن أحدًا لن يستطيع الكتابة هكذا فجأة! مشتعلاً ببحثه المحموم عن رموز يمكن لشعبه فهمها، كان رأسه يتوهج ويطلق دخانًا كأنه التنّور وكأنه قمة الجبل. بدا له كما لو أن خيوطًا من الشعاع تنبثق من رأسه، كما لو أن قرونًا قد برزتْ من جبينه، عظيمًا كان سعيه التوَّاق. ثم واتته فكرة بسيطة، ومضيئة. نعم، لم يكن باستطاعته اختراع علامات لجميع الكلمات التي يستخدمها بنو قومه، ولا لجميع المقاطع التي يشكلون منها كلماتهم. حتى إن كانت مفردات هؤلاء الذين يقبعون في الحظيرة في أسفل الجبل شحيحة للغاية، مع ذلك سيتطلب منه الأمر بناء علامات كثيرة جدًّا في غضون أيامه على الجبل، وكذلك أن يتعلَّم الآخرون القراءة بسرعة. لذلك فكَّر في شيء مختلف تمامًا، وانتصبت القرون على جبينه فخورًا بومضة الإلهام الربَّاني. نجح في تجميع أصوات اللغة، تلك المشكَّلة بالشفتين، وباللسان، وبسقف الحلق، وبالحلق.. وضع جانبًا الأصوات المفتوحة القليلة التي تظهر كثيرًا داخل الكلمات، والتي تتشكل في الحقيقة عبر الأصوات الأخرى إلى كلمات. اكتشف أنه لا يوجد الكثير من هذه الأصوات الرنانة التشكيلية، عشرون بالكاد. إذا نجح المرء في منحها علامات محددة، علامات يمكن للجميع لفظها ونطقها، غمغمتها ودمدمتها، وهذرها والثرثرة بها على السواء، فإنه يمكن للمرء أن يجمع هذه العلامات إلى كلمات وصور للكلمات، متجاهلاً الأصوات المفتوحة غير المنقطعة. وهكذا يمكن للمرء تشكيل أي كلمة يحب، أي كلمة وُجدت أبدًا، ليس فقط في لغة عشيرة أبيه، لكن في كل اللغات، نعم، بهذه العلامات يمكن للمرء كتابة حتى اللغة المصرية أو البابلونية.

ومضة من الله. فكرة ذات قرون. فكرة جديرة بأن تصدر عن الروحاني وغير المنظور، هو من ينتمي العالم إليه، هو من كان، رغم أنه قد اصطفى هؤلاء الذين في الأسفل كشعبه المختار، سيدًا رغم ذلك على الأرض بكاملها. كانت أيضًا فكرة ملائمة بوجاهة للهدف التالي الأكثر إلحاحًا

الذي خُلق منه ومن أجله، نص الألواح، النص المختصر المُلزم. هذا النص كان ليصاغ أولاً وخاصةً من أجل القبيلة التي قادها موسى وأخرجها من مصر، لأن الله وهو كانا يحنوان عليها. لكن تمامًا كما هي الحال مع حفنة من هذه العلامات التي يمكن بها، عند الحاجة، كتابة كل الكلمات في كل اللغات لكل الشعوب، كان يهوه إله كل العالم، لذلك كان مقدَّرًا لموسى أن يلخِّص ويكتب بطبيعة تخدم كمفهوم أساسي، كصخرة يقوم عليها التحضُّر البشري، من أجل جميع شعوب الأرض.

انخرط موسى الآن برأسه المشتعل في تجريب العلامات المرتبطة على نحو متفكك بإشارات وعلامات شعب سيناء كما يتذكرها. على حائط الجبل نحت بقلمه أصوات الثأثأة، والطقطقة، ومصمصة الشفتين، والهسهسة، والحفيف والدمدمة والغمغمة. وعندما انتهى أخيرًا من تجميع العلامات كلها وأضحى قادرًا على التمييز بينها بمقدار معين من اليقين، انظر! بها يمكن للمرء كتابة العالم بكامله، كل ما يشغل مساحة وكل ما لا يشغل مساحة، كل ما يُصنع وكل ما يُخلق. باختصار، كل شيء.

قام بفعل الكتابة، وهذا يعني أنه وخزَ ونحتَ وعزقَ في الحجارة الهشة للألواح، تلك الألواح التي كان قد شحذها بجد والتي توازى خلقها خطوةً بخطوة مع خلق الأحرف. لا عجب إذًا أن يستغرق منه الأمر أربعين يومًا!

جاء يوشع، صديقه الشاب، لرؤيته عدة مرات. أحضر له الماء وكسَر الخبز، دون أن يخبر الشعب بأمانة عن زياراته هذه. كان الشعب يعتقد أن موسى يعيش في الأعلى بجوار الله ويجتمع معه بمفرده تمامًا، وكان من رأي يوشع أنه من الأفضل أن يستمروا في اعتقادهم هذا، لذلك كانت زياراته قصيرة وتنجز ليلاً.

من فجر أول ضوء للنهار أعلى إيدوم حتى انقضاءه، كان موسى يعمل جالسًا وراء الصحراء. للمرء أن يتخيله وهو ينهض قائمًا بكتفيه العاريتين، وصدره المغطَّى بالشعر، وذراعيه القويتين اللتين ربما كان ورثهما عن أبيه المقهور، بعينيه المفترقتين، وأنفه المفلطح، ولحيته المنقسمة التي بدأ الشيب في غزوها - يمضغ كسرة الخبز، يسعل من حين إلى آخر بسبب أبخرة الجبل المعدنية، يدق بمطرقته، كاشطًا، وصاقلاً ألواحه غارقًا في عرق جبينه. كان جاثيًا أمام الألواح

المستندة إلى الحائط الصخري، وبجدّ يحفر التفاصيل الدقيقة، ثم يتتبعها بقلمه وأخيرًا ينقش الأحرف الأبجدية كلية القدرة عميقًا على وجه الحجارة.

على اللوح الأول كتبَ:

أنا، يهوه، ربُّكم، لا تكُن لك آلهة أخرى أمامي.

لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا و لا صورة.

لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً.

اذكر يوم السبت لتقدسه.

أكرم أباك وأمك.

وعلى اللوح الثاني كتبَ:

لا تقتل.

لا تزنِ.

لا تسرق.

لا تشهد على جارك شهادة زور.

لا تشتهِ حليلة جارك. لا تشتهِ امرأة جارك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئًا مما لجارك.

هذا ما كتبه، حاذفًا الأصوات المفتوحة التي تشكِّل نفسها. ودائمًا ما بدا له كما لو أن شعاعًا كالقرنين ينتصب من ثنايا جبينه.

عندما جاء يوشع للمرة الأخيرة إلى الجبل، بقيَ لفترة أطول، يومين كاملين، لأن موسى لم ينتهِ بعد من عمله وكانا يرغبان في الهبوط معًا من الجبل. أُعجبَ الشاب بجماع قلبه بما أنجزه سيده، لكنه واساه لأن بضعة أحرف كانت متكسِّرة ولا يمكن تبيُّنها رغم كل الحب والعناية اللذين بذلهما موسى. طمأنه يوشع بأن هذا لا يؤثر سلبًا في الانطباع العام.

كان آخر ما فعله موسى تحت أنظار يوشع أن طلى الأحرف الغائرة بدمائه حتى تبرز بشكل أفضل. لم تتوافر له أي صبغة أخرى، لذلك جرحَ ذراعه القوية بقلمه ولطَّخ بالدم المتساقط الأحرف حتى تتوهج بلون وردي على الحجارة. بعدما جفَّت الكتابة، أخذ موسى أحد اللوحين تحت ذراعيه، وسلَّم عدة الحاج التي يحملها، التي كان قد صعد بها إلى الجبل، إلى صديقه الشاب، وبذلك انطلقا هبوطًا من مستقر الله نحو معسكر الشعب بالقرب من الجبل في الصحراء.

الفصل 22

(19)

عندما وصلا إلى نقطة معينة بعيدًا عن المعسكر، عند مسافة السمع بالضبط، تناهى إلى سمعهما صوت ضوضاء على شكل صرير أجوف. لم يتمكنا من تفسير منشئه. كان موسى من سمعه أولاً ويشوع من ذكره أولاً.

"هل تسمع هذه القعقعة الغريبة؟"، سأله، "هذا اللغط، هذا الضجيج؟ هناك شيء ما يجري، أعتقد أنه عراك أو نزال، إن لم أكن مخطئًا كثيرًا. ولا بد أنه عنيف وشامل، حتى نسمعه من هذه المسافة. إذا كان هذا ما أعتقده، فمن الجيد أننا جئنا".

"أننا جئنا"، أجابه موسى، "هو أمرٌ طيب في كل الأحوال. لكن حسبما أتبين فهذا ليس شجارًا ولا قتالاً، لكن شيء يشبه احتفالاً أو رقصة انتصار. ألا تسمع الابتهاج المجلجل وقرع الدفوف؟ يوشع، كيف لهم أن يحتفلوا دون إذني؟ يوشع، ماذا حدث لهم؟ دعنا نسرع".

أمسكَ باللوحين عاليًا تحت ذراعيه وتسارعت خطواته إلى جانب يوشع المذهول.

"رقصة انتصار.. رقصة انتصار"، كرر مضطربًا وانتهى برعب مفضوح، لأنه بدا على نحو شديد الوضوح أن الأمر لم يكن عراكًا عاديًّا يستلقي فيه شخص على آخر أسفله، بل كان عربدة متحدة شاملة. والآن أصبح السؤال: أي نوع من الاتحاد كان هذا الذي يعربدون فيه بهذا الشكل؟

حتى ذلك السؤال أجاب عن نفسه سريعًا جدًّا، هذا إذا كان من الضروري بأي شكل طرحه في البدء. كانت الفوضى مريعة. فبينما موسى ويوشع يمران بأعمدة المعسكر العالية شاهداها في تجلٍّ فاحش لا لبس فيه. كان أفراد الشعب قد انفكَّ عقالهم، وطرحوا أرضًا كل ما وضعه موسى عليهم باسم القداسة، وكل فضائل الله. كانوا متمرغين في النكوص والانتكاس.

كانت المساحة الخالية وراء البوابات مباشرةً بمثابة موضع لذلك التجمُّع. هناك كانت تحدث أشياء، هناك كانوا منطلقين، هناك كانوا متمرِّغين، هناك كانوا يحتفلون بحريتهم البائسة. قبل الاندماج في الرقص كانوا قد ملؤوا بطونهم بالكامل. يمكن رؤية ذلك من الوهلة الأولى، ففي كل موضع في المكان كانت تظهر آثار الذبح والشراهة. وعلى شرف منْ قدموا القرابين، وذبحوا الذبائح، وملؤوا بطونهم؟ هناك كان ينتصب، في وسط الجدب، موضوعًا على حجارة، موضوعًا على حاجز مذبح، صورة، شيء صنعوه بأيديهم، شيطنة وثنية، عجلٌ ذهبي.

لم يكن عجلاً، بل كان ثورًا، الثور الحقيقي، المعتاد الفحل لجميع شعوب العالم. كان يُدعى عجلاً فقط لأنه لم يزِد على الحجم المتوسط، بل أقل في الحقيقة، وكذلك كان مشوَّهًا ومصنوعًا على نحو هزلي، فظاعة خرقاء، مع ذلك لا تخطئه العين مطلقًا كثور.

حول هذا الشيء كانت الرقصة الوفيرة تجري دائرةً، عشر دوائر من الرجال والنساء، متشابكي الأيدي، بمصاحبة الدفوف والصنوج. الرؤوس ملقاة تمامًا إلى الخلف، الأعين هائجة ومقلوبة، الركب مندفعة نحو الذقون، كانوا يصيحون ويزمجرون في تبجيل واضح.

في اتجاهات مختلفة كانت الرقصة تدور، دائرة مخزية تدور نحو اليمين، وأخرى نحو اليسار، وفي القلب من مركز الدوامة، قرب العجل، كان يمكن رؤية هارون يتقافز في ردائه طويل الأكمام الذي اعتاد ارتداءه كحارس لخيمة الهيكل المتنقِّل، والذي جمعه عاليًا فوق ركبتيه حتى يتمكن من الرقص والارتجاج بقدميه الطويلتين المشعرتين. أما ميريام فكانت تقود النساء بدفِّها.

لكن هذه كانت فحسب الرقصة المستديرة بالقرب من العجل، فأبعد منه قليلاً ما كان يُنتظر كان يحدث. يصعب الاعتراف إلى أي حد انحطَّ الشعب وأذلَّ نفسه. كان بعضهم يأكل الحيَّات الزجاجية، وآخرون يستلقون بجوار أخواتهم على الملأ، على شرف العجل، وآخرون كانوا مقرفصين فحسب، يفرغون أنفسهم، متناسين المجرفة. كان الرجال يقدمون قوتهم قربانًا للعجل. في مكان ما كان أحدهم منهمكًا في وضع أمِّه في الأغلال.

أمام هذه المشاهد الشنيعة، انتفخت عروق الغضب إلى حدِّ الانفجار في جبين موسى. بوجهه المحمر الملتهب، شقَّ طريقه بين دوائر الراقصين - مباشرةً إلى العجل، بذرة، نافورة، رحم

الجريمة. بعد أن أدركوا وجود السيد، أفسحوا له الطريق بتجهمات غارقة في الحرج. عاليًا رفع واحدًا من ألواحه بذراعين قويتين، ثم حطَّمه على البهيمة الهزلية، حتى تهشمت ساقاها، ثم ضربه ثانيةً، لكن بغضب لدرجة أن اللوح، رغم أنه تفتت إلى قطع الصغيرة، لم تبقَ منه سوى كتلة عديمة الشكل. ثم طوَّح باللوح الثاني ومنحَ الفعلة الشنيعة ضربة أخيرة، ساحقًا إياها إلى غبار بالكامل. ولأن اللوح الثاني ظلَّ سليمًا رغم ذلك، فقد حطَّمه بضربة على قاعدة التمثال الذي تهشَّم، وبعدها وقفَ ساكنًا بقبضتين مرتعشتين، وعميقًا من فؤاده تأوهَ قائلاً: "أنتم يا أوباش، يا من نبذكم الله! هنا يستلقي ما حملته من الله نزولاً من الجبل، وما كتبه لكم بإصبعه كتعويذة ضد بؤس الجهل. هنا يستلقي في الأنقاض بين شظايا معبودكم. وبماذا سأخبر سيدي الإله حتى لا يفنيكم بغضبه؟"

رأى هارون القافز يقف بالقرب من الأعين الكاسفة، وبخصل شعره الزيتية المتدلية على مؤخرة عنقه، وقف صامتًا وأخرق. قبضَ عليه موسى من تلابيبه، هزَّه ونطق قائلاً: "من أين جاء بيليال(8) الذهبي، هذا الزائدة العفنة، وماذا فعل بك الشعب حتى يدفعوك إلى تدميرهم وأنا أعلى الجبل؟ لماذا تنهق أنت ذاتك في رقصة عربدتهم هذه؟"

(8) مصطلح يظهر في الكتاب المقدس العبري، وأصبح فيما بعد مجسدًا على أنه الشيطان في النصوص اليهودية والمسيحية – (المترجم)

ثم أجابه هارون، "أوه، يا سيدي، لا تدع غضبك يتراكم عليَّ وعلى شقيقتي. كنا مضطرين إلى الانصياع. أجبرونا على ذلك. كنتَ بعيدًا لفترة طويلة، وبقيتَ على الجبل إلى ما لا نهاية، حتى اعتقدنا جميعًا أنك لن تعود أبدًا. ثم تجمَّع الناس ضدي وصرخوا قائلين: لا أحد يعلم ما صارَ إليه ذلك الرجل موسى، الذي قادنا وأخرجنا من مصر. حتمًا لن يعود، ربما ابتلعته الفوهة المتدفقة في الجبل. انهض، واصنع لنا آلهة تتقدم أمامنا عندما يأتي العماليق. نحن شعب كبقية الشعوب ونرغب في القصف والعربدة أمام آلهة تشبه آلهة الشعوب الأخرى! هذا ما نطقوا به يا سيدي، لأنهم - واعذرني في هذا - اعتقدوا أنهم تخلصوا منك. لكن أخبرني الآن ماذا كان باستطاعتي أن أفعل في مواجهتهم وقد اتحدوا معًا ضدي؟ طلبتُ منهم نزع الأقراط الذهبية من آذانهم، ثم أذبتها في النار وصنعتُ شكلاً، وصببتُ العجل كإلهٍ لهم".

"إنه حتى لا يشبه العجل حقًّا"، قاطع موسى حديثه باحتقار.

"كانوا في عجلة من أمرهم"، أجابه هارون "وفي اليوم التالي مباشرةً، أي اليوم، أرادوا عقد احتفالاتهم وعربدتهم على شرف الآلهة العطوف، لذلك سلَّمتُ إليهم الصورة كما هي، عمل فني لا يمكنك أن تنكر أنه يتمتع بدرجة ما من الشاعرية. فابتهجوا ونطقوا قائلين: هذا هو إلهكم إسرائيل الذي قادكم وأخرجكم من مصر. ثم بنينا مذبحًا وقدَّمنا القرابين المحترقة وتقدمات الشكر وأكلنا، وبعد ذلك لعِبوا ورقصوا قليلاً".

تركه موسى واقفًا هناك واتخذ طريقه راجعًا إلى البوابة عبر دوائر الراقصين المبعثرة. هناك بجوار يوشع وقفَ تحت الغصن المتقاطع لشجرة البتولا وصاح فيهم بأعلى صوته:

"من منكم بجانب السيد الإله، فليأتِ إليَّ".

جاء كثيرون، هؤلاء من كانوا ذوي قلبٍ سليم ولم ينضموا طوعًا إلى القصف والعربدة. تجمَّعت فرقة يوشع المسلحة حوله.

"أنتَ أيها الشعب التعيس"، "ماذا جنيتم وكيف لي أن أكفِّر عنكم أمام يهوه، حتى لا يبيدكم كشعب عنيد متيبس الأعناق لا سبيل إلى إصلاحه وحتى لا يفنيكم؟ فور أن أدرتُ لكم ظهري، اتخذتم لأنفسكم شيطانًا من الذهب. عارٌ عليكم وعليَّ! هل ترون هذه الخرائب - لا أعني خرائب ذلك العجل، ليأخذها الطاعون! - لكن أعني الأخرى؟ هذه هي الهبة التي وعدتكم بها والتي جلبتها لكم، الإيجاز الأبدي، صخرة الحشمة، الكلمات العشر التي كتبتها، بجوار الله، بلغتكم والتي كتبتها بدمائي، بدماء أبي، بدمائكم كتبتها. الآن أضحت الهبة مجرد شظايا".

ثم سمع كثيرون نحيبه، وهناك كانت مبكاة عظيمة في المعسكر.

"ربما سيكون من الممكن استبدالها" قال موسى. " الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب و السيئة لكنه.." وهو ارتعد صوته فجأة، بعد أن ارتفعت الدماء إلى رأسه وانتفخت عروقه حتى أوشكت على الانفجار – "لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث و الرابع لأنه إله غيور. سنعقد محكمة هنا"، صاح موسى، "وسنأمر بتطهير دموي. سيتحدد من هم

زعماء الفتنة الذين صرخوا أولاً على شرف الآلهة الذهبية وأصروا بعناد وغطرسة على أن العجل هو من قادكم وأخرجكم من مصر، في حين أنا وحدي من فعل هذا، يقول الرب. وهؤلاء عليهم أن يواجهوا ملائكة الدمار، بصرف النظر عن رتبتهم أو شخصهم. سيُرجمون ويُضربون بالسهام حتى الموت، حتى إن كان هناك ثلاثمئة منهم. والآخرون سيُجرَّدون من حليهم ويرتدون لبس الحداد حتى أعود، لأني سأصعد ثانيةً جبل الله، وسأرى في كل الأحوال ماذا باستطاعتي أن أفعله من أجلكم، أنت أيها الشعب متيبس الأعناق".

الفصل 23

(20)

لم يكن موسى حاضرًا في عمليات الإعدام التي جعلها العجل الذهبي ضرورةً، فقد كان هذا شأن يوشع المتحمس. لكن موسى نفسه صعدَ ثانيةً على الجبل واستقر في مغارته تحت القمة المزمجرة. وفي حين كان الشعب في حالة حداد أقام ثانيةً لأربعين يومًا وأربعين ليلةً بين الأبخرة. لكن لماذا يطول مقامه هكذا؟ الإجابة كالتالي: ليس فقط لأن يهوه أمره بتشكيل الألواح من جديد وكتابة ما يمليه عليه من أوامر مجددًا - أُنجزت هذه المهمة بسرعة أكبر لأنه كان قد أصبح متمرِّسًا وعليمًا بكيفية الكتابة - لكن أيضًا لأنه اضطر إلى الدخول في صراع طويل مع الرب قبل أن يسمح له بالتجديد. كان نزالاً انتصر فيه الغضب والرحمة والكدّ، علاوة على العمل والحب من أجل المهمة. اضطر موسى إلى استخدام قوة إقناع كبيرة والكثير من التضرعات الماهرة لمنع الرب من إعلان خيانة الميثاق، لأن الرب أوشك أن يبرئ نفسه من عهده مع الرعاع متيبسي الأعناق، وأوشك على تحطيمهم تمامًا كما حطم موسى في غمرة غضبه الملتهب لوح الشريعة الأول.

"لن أذهب وأتقدمهم"، قال الرب، "لقيادتهم إلى أرض آبائهم، لا تطلب مني هذا، لا يمكنني الاعتماد على صبري. أنا إله غيور، أغلي من الغضب، وسترى يومًا ما أنني سأنسى نفسي وسأفنيهم جميعًا".

ثم اقترح على موسى أن يقضي تمامًا على هذا الشعب، الذي تشكَّلَ على نحو خاطئ والذي لا أمل في إصلاحه تمامًا كالعجل الذهبي. من المستحيل تمامًا، قال له، أن ترتقي بهم إلى شعب مقدس، ولم يبقَ شيء أمامي سوى إهلاكهم واستئصال جذورهم. لكن من ناحيته، موسى، فيمكنه أن يجعل منهم أمة عظيمة وأن يحيا معهم في ظل العهد. لكن هذا ما لم يكن موسى يسعى إليه، فقال له: "لا، يا إلهي، اغفر لهم خطاياهم، وإن لم تفعل، فامحُنِ من الكتاب أيضًا، لأنني لا أتمنى أن أستمر على قيد الحياة بعد موتهم. من ناحيتي، لا أتوقُ إلى شعب مقدس آخر سواهم".

ثم توسَّل إلى حسِّ الشرف لدى الرب ونطق قائلاً: تخيَّل، يا مقدس، ما سيحدث. إن قتلت هذا الشعب كرجل واحد، فإن الوثني الذي يسمع صرخاتهم سيقول: يا للخزي! لم يتمكَّن الرب من جلب الشعب إلى الأرض التي وعدهم بها. لم يكن قويًّا ما يكفي، لذلك اضطر إلى ذبحهم في البرية.

هل ترغب في أن يقال ذلك عنك من جانب كل شعوب العالم؟ لذلك دع قوة الرب تبدو عظيمة، وكن حليمًا مع خطايا أطفالك في ظل رحمتك".

كانت هذه المجادلة الأخيرة هي ما أقنعت الرب بالميل نحو التسامح والغفران، بشرط وقيد، رغم ذلك، أن من هذا الجيل فإن أحدًا غير يوشع وكالب لن يريا أبدًا الأرض الموعودة. "أطفالك"، قرر الرب، "سأقودهم إلى هناك. لكن كل من كان في عمر يتجاوز العشرين، فأبدًا لن يشهدوا أرض الميعاد. ستتداعى أجسادهم في الصحراء".

"طيبٌ هذا، أيها الرب، وطيبٌ كل شيء يكون"، أجابه موسى. "لنترك المسألة عند هذا". فلأن هذا القرار يتفق مع قراره ومع أغراض يوشع، فإن موسى لم يجادل مزيدًا ضده. "الآن دعنا نجدد الألواح"، قال له، "حتى يمكنني نقل إيجازك إلى الكائنات البشرية. أيًّا كان الأمر، ربما كان من المفيد أنني حطمتُ اللوح الأول في غمرة غضبي، فقد كانت هناك بضعة أحرف مشوهة فيه. سأعترف لك الآن أن هذا قد خطر على بالي سريعًا عندما قذفتُ بالألواح وحولتها إلى شظايا".

وثانيةً جلسَ، وخلسةً كان يوشع يمده بالغذاء والمدد، مستغرقًا في الوخز والنحت والشحذ والصقل. ماسحًا جبينه من وقت إلى آخر بظهر يده، كان يكتب، عازقًا وحافرًا الأحرف في الألواح. ظهرتْ هذه المرة بشكل أفضل بكثير من المرة الأولى. ثم ثانيةً طلى الأحرف بدمائه ثم هبط من الجبل، حاملاً الشريعة تحت ذراعيه.

أُعلنت إسرائيل أن الحداد قد وصل إلى نهايته، وأن الآن لهم أن يرتدوا حُليَّهم، بالطبع باستثناء أقراط الأذن، فهذه كانت قد استُهلكت في الغرض الدنيء. ثم وقفَ الشعب بكامله أمام موسى حتى يمنحهم ما جلبه بعد نزوله، رسالة يهوه من الجبل، الألواح ذات الكلمات العشر.

"تناولوها، مكتوبةً بدماء آبائكم"، قال لهم، "واحملوها بتقديس في خيمة الرب. وما تخبركم إياه، ضمِّنوه بتقديس في أفعالكم. فها هنا موجز ما سيوحدكم، ها هنا الخلاصة الإلهية، ها هنا بدء ومنتهى السلوك الإنساني، ها هنا صخرة الفضيلة، التي كتبها الرب بالنقش على الحجر، باستخدام القلم الذي أحمله. بلغتكم كتبها، لكن برموز يمكن بها، عند الحاجة، كتابة لغات الشعوب قاطبةً. لأنه رب كل الشعوب، ولذلك فهو رب الأبجدية، وخطابه، الموجه لكم، يا إسرائيل، هو في الوقت نفسه خطاب لجميع الشعوب.

في حجارة الجبل نقشتُ أبجدية السلوك الإنساني، لكنها يجب أن تُحفَر في لحومكم ودمائكم، يا إسرائيل، حتى يرتعش ذلك الذي يخالف مجرد كلمة واحدة من الوصايا العشر أمام نفسه ذاتها وأمام الرب ثم يستقر إصبع جليدي على قلبه، لأنه بذلك يكون قد خطا وتجاوز حدود حظيرة الرب. أعرف جيدًا ويعرف الرب مقدمًا أن وصاياه لن تُطاع، وأنها ستكون عرضةً للانتهاك في كل زمان ومكان، لكن على الأقل فإن قلب أيًّا من يخالفها سيتحول إلى جليد، فالكلمات قد كُتبت في لحم ودماء كل إنسان وعميقًا في دواخله يعرف يقينًا أنها كلمات صالحة لكل زمان ومكان.

لكن ويلٌ للرجل الذي ينهض ويتحدث قائلاً: لا، لم تعد هذه الكلمات صالحة. ويلٌ لمن يعلِّمك قائلاً: انهض وتخلص منها! اكذب، اقتل، اسرق، ابغِ، اغتصب، وقدِّم أباك وأمك إلى السكين. فهذا هو السلوك الطبيعي للكائنات البشرية وستسبحون باسمي لأنني من أبيح الطبيعي من حرية القول والفعل. ويلٌ له من يشيِّد عجلاً وينطق قائلاً: هذا إلهكم، على شرفه افعلوا كل هذا، والتفّوا في دوامات حول الصورة التي صنعتها في رقصة عربدة دائرية. سيكون ذا قدرة وذا سلطة، سيجلس على عرشٍ ذهبي، وسيُنظر إليه كأحكم الحكماء، لأنه يعلم أن ميل القلب البشري هو شر في الأصل، حتى في شبابه. لكن هذا هو كل ما يعرفه، ومنْ لا يعرف سوى هذا فهو أحمق كالليل، وله أن يتمنى أنه لم يولد قط. لأنه لا يعلم شيئًا عن العهد بين الله والإنسان، عهد لا يمكن لأحد نقضه، لا الإنسان ولا الله، لأنه عهدٌ غير قابل للنقض. ستتدفق الدماء في وابل من السيول بسبب حماقته السوداء، دماء كثيرة لدرجة أن الحُمرة ستختفي من وجنات النوع البشري. لكن حينها سيقطع الشعب دابر الوحش - أمرٌ لا مفر منه، لأنه عاجز عن فعل أي شيء آخر. ثم يقول الرب، سأرفع قدمي وأسحقه بها لأمرِّغه في الوحل، إلى قاع الأرض سأرمي بالمجدِّف، إلى عمق مئة وعشرين قامة(9). ثم يرسم الإنسان والوحش دائرةً حول البقعة التي ألقيته فيها،

وطيور السماء، هائمةً في تحليقها، ستتحاشى المكان حتى لا تضطر إلى الطيران من فوقه. ومن ينطق باسمه، سيبصق في اتجاه أركان الأرض الأربعة وسيمسح على فمه ويقول: انصرف بأمر الرب! حتى تصبح الأرض هي الأرض ثانيةً، وادي الحاجة والعوز، نعم، لكن ليست حظيرة الانحطاط. على ذلك قولوا آمين!"

(9) القامة: وحدة قياس قديمة للأعماق تساوي 6 أقدام– (المترجم)

ثم قال الشعب جميعًا آمين.

الفصل 24

الفهرس

النهاية - الفصل 25